

جامعة محمد لمين دباغين

سطيف 2

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم الفلسفة

مطبوعة بيداغوجية

محاضرات في مقياس بيوايتيقا ومستقبل الإنسان

السنة الثانية ماستر تخصص فلسفة تطبيقية

د. بن ولهة توفيق

السنة الجامعية: 2023-2024

عنوان الماستر: فلسفة تطبيقية

السداسي: الثالث

اسم الوحدة: أساسية

اسم المادة: بيوايتيقا ومستقبل الإنسان

الرصيد: 5

المعامل: 2

أهداف التعليم: تعريف الطالب بحقول المعرفة الأخرى التي لها صلة بحياته اليومية ومعارفه الفلسفية والأخلاقية التي تعلمها خلال مساره الجامعي.

المعارف السابقة: ربط الترجمات المعرفية السابقة بما يمكن تعلمه في هذه المادة  
محاور المادة:

المحور الأول: ضبط المفاهيم

المحور الثاني: في تاريخ الثورة البيولوجية

(المحور الثالث: الخلفية التاريخية للبيوايتيقا: الجذور وأسباب الظهور) أهم الإشكاليات

المحور الرابع: البيوايتيقا والعلوم الإنسانية

المحور الخامس: البيوايتيقا والفلسفة

المحور السادس: البيوايتيقا في ضوء الدين

المحور السابع: البواتيقا والقانون

المحور الثامن: الإطار الأخلاقي لأبحاث الجينوم والهندسة الوراثية البشرية

المحور التاسع: مصير الإنسان والثورة البيولوجية المعاصرة

المحور العاشر: نماذج فلسفية مختارة

طريقة التقييم: متواصل - امتحان

المصادر والمراجع:

- Didier Sicard: l'éthique médicale et la bioéthique
- D. H. Gouyon: La bioéthique est-elle de mauvaise foi?

- نهاية الإنسان، فوكوياما.

## المحتويات:

المحاضرة الأولى: البيوايتيقا المفهوم والتجاور.

المحاضرة الثانية: تاريخية مفهوم البيوايتيقا.

المحاضرة الثالثة: مبادئ الطب الكلاسيكي والبيوايتيقا.

المحاضرة الرابعة: البيوايتيقا والثورة في علم البيولوجيا.

المحاضرة الخامسة: البيوايتيقا والفلسفة.

المحاضرة السادسة: بين المقاربة الأخلاقية والممارسة العملية.

المحاضرة السابعة: البيوايتيقا ونموذج التفكير الجديد في الطب والبيولوجيا.

المحاضرة الثامنة: البيوايتيقا وعلاقتها ببعض العلوم الإنسانية.

المحاضرة التاسعة: البيوايتيقا والفلسفة.

المحاضرة العاشرة: الفلسفة والبيوايتيقا. -تابع-

المحاضرة رقم إحدى عشر: البيوايتيقا ومصير الإنسان.

المحاضرة رقم اثنا عشر: البيوايتيقا ونماذج في الطب المعاصر الموت الرحيم

المحاضرة رقم ثلاثة عشر: البيوايتيقا وبعض قضايا الطب المعاصر الموت الرحيم

تابع.

المحاضرة رقم أربعة عشر: البيوايتيقا ونموذج تكنولوجيا الإنجاب الاصطناعي.

## مقدمة: التعريف بالمقياس

مقياس البيوايتيقا ومستقبل الإنسان هو مقياس موجه لطلبة السنة الثانية ماستر تخصص فلسفة تطبيقية، وهو مقياس سداسي، يقدم في السداسي الأول من السنة الثانية للتكوين، ويقدم هذا المقياس مجموعة من المعارف مكملة لتكوين الطلبة عبر مسار دراستهم، وي طرح مواضيع مختلفة لها خط ناظم وهو علاقة البيوايتيقا بمختلف المشكلات التي يواجهها الإنسان المعاصر خاصة في مجال الطب والبيولوجيا، ويهدف هذا المقياس إلى تمكين الطالب من ترتيب المشكلات وفق الأولويات وهو يساعده على حصر الحلول واختيار أنجعها، كما أنه من المقاييس التي تتجه إليها الفلسفة في تناولها لمشكلات الواقع، ولذا يعتبر حلقة ربط بين ما هو نظري أو ما تناوله الطالب من نظريات أخلاقية نظرية وبين ما هو واقعي متمثل فيما يشهده الطب من مشكلات.

## المحاضرة الأولى: البيوايْتِيقا المفهوم والتجاور

### أهداف المحاضرة:

- 1- وضع الطالب في السياق العام لمقياس البيوايْتِيقا ومستقبل الانسان.
- 2- الإحاطة ببعض مصطلحات المقياس.

### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- مفهوم الأخلاق في بعدها الكلاسيكي.
- 3- مفهوم البيوايْتِيقا.
- 4- خلاصة.

### تمهيد:

لقد شهد العلم الكثير من التطورات خاصة في مجال علوم الحياة والبيولوجيا، هذا ما أدى إلى ظهور قضايا ومشاكل أخلاقية جديدة، لم تستطع أطر الأخلاق الكلاسيكية استيعابها، ناتجة عن تلك التجارب والمحاولات المخبرية في مجال الطب والبيولوجيا والتي تتخذ من الكائن الحي موضوعاً لدراستها خاصة الكائن الإنساني، الذي بدأت تطرح أمامه هذه الاكتشافات الكثير من المشاكل، بل قد أخذ بعض التجارب بعداً هدد فيه وجوده، خاصة تلك التي دعمتها لوبيات سياسية وعسكرية

لأغراض غير علاجية، ومنها تقنيات الإنجاب الاصطناعي، وتقنيات الهندسة الوراثية، والتحكم في الجهاز العصبي للإنسان، وزرع الأعضاء والتلاعب بأجساد الموتى ...

لقد شهد الطب تطورًا متسارعًا بشكل رهيب في القرن الحالي، مما حال بينه وبين غاياته الكلاسيكية التي عهدناها، فأصبح يحدثنا الطب عن تغيير في الموروثات والأجنة، وعن خلايا الشيخوخة les cellules vieillissantes والخلايا الجذعية les cellules souches خلايا الحياة، إلى استئصال وتعديل عمل الكثير من الأعضاء.

هذا الأمر تسبب في الكثير من الإشكاليات الأخلاقية، لم تستطع المنظومة الأخلاقية بشكلها الكلاسيكي استيعاب هذا الكم الهائل من التطور ومن الاكتشافات التي هي بصدد تغيير حياة الإنسان جذريًا، فكان من الضروري أن نتتبع مسار تطور هذه المفاهيم، لنفهم ذلك المنعطف الذي شهدته الفلسفة المعاصرة في الانحراف المفاهيمي الذي عرفته الأخلاق وخاصة الأخلاق الطبية.

هذا ما جعل الفلسفة تتدخل لتدرس طبيعة هذه التطورات، ونشأ بذلك مبحث جديد ألا وهو البيوايثيقا، فما هي البيوايثيقا؟ وما هي أهم المواضيع التي تطرحها؟ وما علاقتها بالأخلاق الكلاسيكية؟

## 1- مفهوم الأخلاق في بعدها الكلاسيكي:

يطلق علم الأخلاق على العلم الذي يدرس مظاهر السلوك الإنساني، هذا السلوك الذي يمكن إصدار حكم قيمي نحوه سواء بالخير أو الشر، أي أنه يبحث في الأحكام القيمة التي تنصب على الأفعال الإنسانية من ناحية الخير والشر، وهذه القيمة التابعة لكل سلوك هي من تميز السلوك الإنساني عن الحيواني، فهو مدفوع بالقصد الواعي، الذي توجهه قوة عقلية يتميز بها الإنسان عن غيره.

إن ما يترتب عليه مسؤوليات عكس الحيواني المدفوع بالغريزة، والأخلاق تحمل هذا المفهوم منذ القدم وكل سلوك يدعم بشيء كسلوك عمل أو سلوك قتل وهو الأمر الذي يحدد قيمته الأخيرة سواء كان خيراً أو شراً.

في هذا الصدد فإن الأخلاق قد تشمل ذلك الجزء من المعرفة الإنسانية، التي توجه أفعالنا الحرة باتجاه نهايتها الأخيرة، فهي معلمة الحياة، وهي معرفة تطبيقية ترتب أفعالنا. ويمكن القول أن الأخلاق هي تصميم حلول للحالات الفردية بشكل جيد وفردى، فهي ليست موضوع علمي لكن موضوع للتمارين التي نسميها حالة الوعي الإنساني بالسلوك الذي نرجو من وراءه تحقيق نتائج.

من هنا يمكن القول بأن الأخلاق تجعلنا نتحدث عن قانون يحكم أفعال الإنسان واندفاعاته، وإعطائها طابعا قيميا، موجه في الوجود ومع الآخر، فهو من العلوم

المعيارية التي تضع مقاييس للسلوك الإنساني المختلف عن الفكر كنموذج للتعامل مع المجردات، فإذا كان الفكر يمثل القوة التي تمكن الإنسان من تطويع ما يواجهه من مشكلات، فإن هذه القوة تبقى كامنة إذا لم تترجم إلى فعل ممارساتي يظهر أثره على الواقع، لذلك فمفهوم الإنسان يبقى منقوصًا إذا انحصر على مفهوم التفكير وحده، كما عمد الكثير من الفلاسفة الكلاسيكيين على تأكيده، وإنما هو مفهوم يتعدى إلى الممارسة وترجمة الأفكار إلى أفعال، صحيح أن الفكرة هي بداية تبلور الفعل، لكن الفكرة تبقى مجرد شعار إذا لم يكن لها أثر مادي يمكن لمس نتائجه في الواقع، وهو ما تحاول البيوايتيقا تجاوزه من خلال تعاملها مع مشكلات يعيشها الإنسان في الواقع.

## 2- مفهوم البيوايتيقا:

يجمع مفهوم أخلاقيات البيولوجيا بين مفهومين: السير للمعرفة البيولوجية وروح القيم الإنسانية. وقد تم استخدام مصطلح "أخلاقيات علم الأحياء" في البداية بمعنى واسع جدًا، أين اقتصر على الأسئلة التي أثارها ظهور الممارسات الطبية الجديدة في نهاية السبعينيات. ومع التقدم السريع في التكنولوجيا الحيوية، ركزت أخلاقيات علم الأحياء بسرعة على حقوق الإنسان وعلى دراسة المشاكل الأخلاقية التي يطرحها تطبيق هذه التطورات العلمية على البشر.

وبالتالي يمكن تعريف الأخلاقيات الحيوية على أنها "مجموعة من الأبحاث والخطابات والممارسات، متعددة التخصصات عمومًا، تهدف إلى توضيح أو حل المسائل ذات الأهمية الأخلاقية التي يثيرها تقدم وتطبيق العلوم التقنية الطبية الحيوية" (جيلبرت هوتوا).

تسترشد أخلاقيات علم الأحياء بأربعة مبادئ رئيسية، وهي:

- مبدأ احترام الاستقلالية principle of independence : وهنا نعني بها أن يكون العمل المقدم للإنسان مستقل عن جميع الأهداف السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية أو غيرها من الأهداف التي قد تخرج هذا العمل عن غرضه الأساسي.
- مبدأ الإحسان principle of charity: وهو ضد الإساءة، أي أداء الحقوق لأولئك الأشخاص الذين وضعوا ثقتهم بين يدي الطبيب أو المعالج، ويمكن الرجوع بهذا المبدأ إلى القسم الأبقراتي الذي يجعل الطبيب يقدم الرعاية للمريض دون أن تكون في نفسه رغبة للتقصير.
- مبدأ عدم الإساءة The principle of no offense: ويكون بعدم التعسف في استعمال السلطة الطبية التي تؤدي إلى الإساءة إلى المريض بأي شكل من الأشكال، سواء كانت هذه الإساءة مادية أو معنوية.
- مبدأ العدالة principle of justice: فالطبيب عليه أن يكون عادلاً في تقديم المساعدة الطبية لمن يحتاجها، مقدراً الأولوية بحسب الحالة لا بحسب الجنس أو المكانة أو القرابة.

من خلال هذه المبادئ يمكن تحديد أولويات الفعل الذي يقوم عليه الفعل الطبي، وقد تم توضيح هذه المبادئ في تقرير بلمونت، الذي نشرته وزارة الصحة والتعليم والخدمات الإنسانية بالولايات المتحدة عام 1979.

### خلاصة:

يتأكد لنا من هنا بأن الأخلاق والبيوايتيقا يشتركان في موضوع الدراسة التي تنصب على تقييم السلوك الإنساني الواعي والمقترن بالمسؤولية، لكن تبقى الأخلاق منحصرة في هذه الثنائية التقليدية، بما أنه بقي أغلب أنساقها مرتبط باللاهوت والميتافيزيقا، فكثيرا ما كانت توصف بأنها تلك المتعالية التي مصدرها الإله، حيث أنها قد ارتهنت في صورتها بربط ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، لكن البيوايتيقا متفرعة الاختصاصات والقيم.

## المحاضرة الثانية: تاريخية مفهوم البيوايتيقا

### أهداف المحاضرة:

- 1- الاطلاع على تاريخ استعمال المصطلح.
- 2- تكوّن المفهوم وحدود اشتغاله.

### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- البيوايتيقا وطريق نحت المفهوم.
- 3- الأخلاق والبيوايتيقا.
- 4- الأخلاق والثورة العلمية المعاصرة وفقدان المركزية.
- 5- خلاصة.

### تمهيد:

إذا أردنا أن ندقق في مصطلح البيوايتيقا من خلال البحث في الكتب التي ورد فيها استعماله، فيمكن القول بأن بداية استعمال مصطلح البيوايتيقا كما أجمعت الكثير من الدراسات يعود إلى فترة السبعينات من القرن الماضي، وهذا يؤكد بأنه مبحث جديد نظرًا لأن المواضيع التي يطرحها متعلقة بالاكتشافات المعاصرة التي شهدتها علوم الطب والبيولوجيا، سواء ما تعلق بمستويات الوجود الدنيا التي ترتبط بالنبات

أو العليا التي وصلت لواحقها إلى الإنسان، فما هي تاريخية استعمال هذا المصطلح؟ وما علاقته بالمباحث الأخلاقية في شكلها الكلاسيكي؟

### 1- البيوايتيقا ونحت المفهوم:

بدأ استعمال المصطلح مع البيوكيميائي المتخصص في طب الأورام السرطانية Van Rensselaer Potter (1911-2001)، وبالتحديد سنة 1970م، في مقال نشره بالمجلة الأمريكية المتخصصة *Perspectives in Biology and Medicine*، تحت عنوان *Bioethics, the Science of Survival*، حيث قاده أبحاثه الميدانية إلى التعامل مع الكثير من الحالات المرضية التي طرحت أمامه إشكاليات معقدة، منها ما تعلق بجسد المريض المائل أمام الطبيب بآلامه وآهاته، في مقابل ما يجد كل يوم في البحث الطبي والبيولوجي، هذا التقابل الذي يحتاج إلى قرارات علاجية تتداخل مع مواقف مختلفة كذاتية الطبيب المعالج، وموقف أسرة المريض وقوانين وأعراف وديانة المجتمع، أو ما يمكن جمعه فيما يسمى بالأخلاق *Ethics*، كل هذا جعله يحاول أن يبلور مقاربة نظرية لهذه الحالة، سواء بإيجاد مفاهيم ملائمة لنعتهها أو من حيث ضبط تصورات يحتكم إليها الطاقم الطبي إذا واجهته مثل هذه المواقف، حيث يقول بوتر ضابطاً هذا المفهوم "إن العلم الذي يجعلنا نحافظ على الحياة، لا يمكن حصره في أخلاق الطبيب، بل إن مجالاته تمتد إلى

كل القضايا الأخلاقية، والتي تتداخل أطروحاتها في هذا الشأن مع الكائنات الحية، سواء كان إنسان أو غير ذلك من أشكال الحياة"<sup>1</sup>.

إن البيوايثيقا اليوم لا تهتم بالنظريات الطبية والبيولوجية بل تهتم بتطبيقاتها العملية، خاصة في الميدان الطبي، وتتبع ما سترتب عن هذه الممارسات من استتبعات حقوقية ودينية وسياسية وأخلاقية وإيتيقية... لا سيما عندما يرتبط الأمر ببعض النتائج العملية المتعلقة بالاختيارات السياسية والعسكرية، هذه القوى الضاغطة توجه مجالات البحث الطبي إلى ما يخدم مصالحها دون مراعاة لانعكاسات ذلك على مستقبل وهوية الإنسان، وهو ما جعلها تستمد مشروعها وسند مناقشاتها مع العلم من القيم الأخلاقية السائدة، فما علاقة الأخلاق بالبيوايثيقا؟ وهل يمكن أن تكون البيوايثيقا صورة محسنة ومطورة لمبادئ الأخلاق الكلاسيكية التي عجزت صورتها النمطية عن مسايرة ذلك التطور الكبير والهائل الذي شهدته العلوم بمختلف فروعها، خاصة تلك العلوم التي أصبحت تتعامل مع الإنسان مباشرة؟ أم هي قيم أخلاقية جديدة قائمة على آلية المراقبة المكثفة لما يجري في معامل الطب والبيولوجيا بدل المراقبة الصامتة التي كانت تميز الطب التقليدي؟

---

<sup>1</sup> Roberto Andorno, La bioéthique et la dignité de la personne, P.U.F 1997, p 04-06.

#### 4- الأخلاق والبيوايتقا:

من حيث الاستعمال للمصطلحين، فإن الأخلاق Ethique ترجع إلى المصطلح اليوناني Ethikos، والتي تهتم بالعبادات وعلم المبادئ... الذي هو قسم من الفلسفة، وهي تهتم بالغاية من الحياة البشرية، كما أنها تشير إلى مدى تطبيق تلك المبادئ في الحياة بمختلف مواقفها، أما البيوايتقا فهي تتألف من كلمتين يونانيتين هما Bios بمعنى حياة، و إيتيك Ethique بمعنى الأخلاق، لكن ظهور المصطلح مركبا في صورته الحالية يرجع كما قلنا إلا أواخر الستينات، والذي استعمله الأمريكي بوتر، حيث اعتبر البيوايتقا "دمجا بين المعارف البيولوجية والقيم الإنسانية"<sup>2</sup>.

هنا تظهر الإضافة التي تختلف بها البيوايتقا عن الإيتقا، وهي مجموعة المعارف البيولوجية التي استجدت في هذا البحث، وهنا كأن البيوايتقا تحاول أن تربط ما هو ساكن ومتمسك بمبادئ موضوعية ألا وهي الأخلاق بما هو متحرك ونسبي والمتمثل في نتائج العلم، وهنا لا تكتفي البيوايتقا بإدخال متغير المعارف الطبية والبيولوجية على الأخلاق، بل تعمل على إشراك كل ما يحيط بالعملية في معناها الشمولي، الذي يتضمن بالإضافة إلى تلك المعارف الطبية، من علم الوراثة وعلم البيئة وعلوم قانونية ودينية ونفسية واجتماعية... لتظهر في كل مركب لتقاسم المسؤولية كي لا

---

<sup>2</sup> المرجع السابق، ص 17.

يتحملها الطبيب بصفة فردية، وهذا كله حفاظا على مستقبل الجنس البشري، وتوفير شروط استمراره، وفق شروط تجعله يتطور وفي نفس الوقت يحافظ على حياته.

## 5- الأخلاق والثورة العلمية المعاصرة وفقدان المركزية:

إنّ ما سوف يصبح موضوع دراسة اليوم هو الإنسان في بعده البيولوجي، الذي يعيش اللحظة، المجاورة للذوات الأخرى، والمتفردة عنها وعن كل ما يحيط بها في هذا الكون، الذي هو جزء لا يتجزأ منه، أين يكون "الإنسان والإنسان وحده، مرجع ذاته ومقياسها، فالإنساني كوبرنيك جرد المكان الذي نرى منه الكون (الكوسموس) في الحقيقة من إنسانيته، أما فيزال الإنساني، فقد جعل من جسم الإنسان الوثيقة الوحيدة الصحيحة المتعلقة بصنع الجسم الإنساني"<sup>3</sup>، وذلك لأن الإنسان قد لا يقتصر وجوده على البعد الفكري ولا التاريخي ولا المادي ولا حتى النفسي، بل قد يستمد وجوده من البعد البيولوجي.

وها هو ذا الإنسان يفقد فجأة مركزيته الوهمية، نتيجة اكتشافات كوبرنيك، التي زحزحت الأرض عن مركزها، ورمتها في زاوية من زوايا هذا الكون الفسيح، فأصبح الإنسان وكوكبه مجرد نقطة لا متناهية الصغر، بل وعديمة الوزن أمام هذا الكم الهائل من الأفلاك والمجرات.

---

<sup>3</sup> جورج كانغيلام، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، مصدر سابق، ص 66.

ثم فقد الإنسان مرة أخرى مركزه مع تلك النظرية التطورية، التي جاء بها الانجليزي تشارلز داروين Cl.R.Darwin (1809-1882م)، حيث استبدلت المركزية بالهامش، والعلو بالدونية، فالإنسان حسبها وُجد نتيجة جدل طويل من التحول والتطور، وبذلك "لم يعد الإنسان هو المقياس المعطى قبلياً للتطورات الخاصة بكل الأشكال الأخرى، التي تقترب بصورة لا متساوية من اكتمال فريد، فالإنسان يقدم باعتباره المنتهى الفعلي لسلسلة، وليس باعتباره القطب المثالي لصعود ما، إنه يراكم الوراثة الحيوانية، ولا يبلغ قمة الترتاب، لأنه يمكن أن يُتجاوز"<sup>4</sup>.

لنتالى الضربات الموجعة للمفهوم الكلاسيكي للإنسان، وهذه المرة من علم طالما تنكر لوجوده الاتجاه العقلي، وهو علم النفس وكان ذلك مع سيغموند فرويد S.Freud (1856-1939م)، لقد ربطت نظرية التحليل النفسي مواقف الإنسان المختلفة برغبات سخيطة وأخرى مدمرة، وترنحت سلوكياته بين رغبة جامحة وكبت عنيف، لتكون أغلب سلوكياته غير قابلة للسيطرة، وبدا وكأنه يعيش بذاتيتين متميزتين، ذات واعية وذات غير واعية، ومهيئة في كل لحظة للانحلال.

كما سعت كذلك الانثروبولوجيا لتوجيه نقد لاذع للإنسان المسئول، حين انتهى ليفي سترافوس CL. Lévi-Strauss (1908-2009م) إلى تصور تاريخ دون بشر، بل هو اشتغال لبُننية، ألغيت فيها كل مقدسات الفرد وقيمه، ليصبح الإنسان شيء

---

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص182.

من الأشياء، لأن الحياة ترد في مجموعها إلى شروط فيزيوكيميائية  
5.phisiochemie.

وسوف لن تنتهي هذه الانتقادات ما دام العلم في تطور مستمر، ولن تكتفي بقتل  
الإنسان كما ردد ذلك فريدريك نيتشه *F.Nietzsche* (1844-1900م)، بل ستعمل  
على محو آثاره كما قال ميشال فوكو *M.Foucault* (1926-1984م) "ما يتأكد في  
أيامنا هذه ليس غياب الله أو موته (كما يقول نيتشه)، بقدر ما أنه نهاية الإنسان...  
إن الإنسان سيختفي"<sup>6</sup>.

من هنا نقول بأنه مهما حاولت مختلف التعاريف، العمل على تجاوز طبيعة الإنسان  
البيولوجية، من خلال نعتة بالتفكير أو الصنع أو حتى التكلم<sup>7</sup>، إلا أنها لم تستطع  
نزع تلك الصبغة الطبيعية لمجموعة المزايا التي يشترك فيها جميع الناس، بما فيها  
الحياة الحيوانية، والتي عبر عنها بوفون *Buffon* بقوله: "بغير الحيوانات كانت  
طبيعة الإنسان ستكون غير مفهومة"<sup>8</sup>.

---

<sup>5</sup>CL.Lévi-Strauss, *La Pensée sauvage*, Edition Plon, Paris, 1962, p327.

<sup>6</sup>M. Foucault, *Les mots et les choses*, Edition Gallimard, Paris, 1975, p397.

<sup>7</sup>يعرّف الإنسان بكثير من الصفات، على أنه "إنسان صانع"، "إنسان عالم -مفكر"، "إنسان متكلم"، "إنسان  
اقتصادي"..(أنظر أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ج1، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، لبنان، ط1،  
2001، ص 563).

<sup>8</sup> جورج كانغيلام، دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، مصدر سابق، ص 70.

من غير المعقول أن نتكلم عن الإنسان بعيداً عن حياته العضوية، بما أنه كائن حي قبل أي نشاط يقوم به، فلم يكن الإنسان الغابر إذاً إنساناً بالمعنى المعاصر، إنه ينتمي إلى ما قبل تاريخ الإنسان، إنه يستبق بالفن والشعر والتاريخ والعلم والتقنية ظهور إنسان ينبغي تجده، ينبغي خلقه باطراد، وهو يعلن بثقافته أن الصناعي ينبذ الطبيعة<sup>9</sup>، ومع هذا يبقى الإنساني ثاوي فيه مهما تغيرت درجات تطوره.

قد يكون هذا ما أثار حنق الكثير من الدارسين على علم النفس، عندما تغاضى عن هذا الجانب، وفصله بين نوعين من أنواع الدراسة (علم النفس التجريبي) الذي يهتم جزء كبير منه بدراسة السلوك الحيواني، أما القسم الثاني والذي يضم (علم النفس العيادي) يركز دراسته على ما يصدر على الإنسان من سلوكيات، باعتباره كائن ثرثار أو كتوم، كائن اجتماعي أو غير اجتماعي... وهنا يتساءل كانغيلام "وهل يمكن عندئذ أن نتحدث بصورة دقيقة عن نظرية عامة في السلوك، طالما لم نحل مسألة معرفة ما إذا كان ثمة قطيعة أو تواصل بين اللغة البشرية واللغة الحيوانية، وبين المجتمع البشري والمجتمع الحيواني؟"<sup>10</sup>، تلك الأسئلة التي قد تتخفى عنا في كثير من الأحيان، هي التي ستشكل الخط الفاصل بين الحيواني والإنساني، سواء

---

<sup>9</sup> جان ماري أوزياس، الفلسفة والتقنيات، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، لبنان، ط2، 1983، ص 13.

<sup>10</sup>G. Canguilhem, Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Librairie Philosophique j.Vrin, 6 édition augmentée, Paris, 1994, p 367.

في سلوكه أو لغته أو علاقاته، تجعلنا بمقتضاها نطلق على تجمع ما على أنه مجتمع حيواني، وتجمع آخر على أنه مجتمع إنساني.

كما أن الأمر لا يتعلق هنا باختيار مفاهيمي متأثر بعصر دون آخر، وإنما يمس هذا الأمر حقيقة كنه الإنسان، الذي لم يبق ذلك الكائن المفكر فقط، أو كما نعتة ديكارت بأنه ذلك الكائن الذي يفكر ويتذهن ويشك ويدرك، هذه التوصيفات المتعددة التي يعطيها ديكارت للإنسان لا نجد فيها للجسد مكاناً، رغم أن ميرلوبونتي M.Merlau Ponty (1908-1961م) سيبرر له هذه الهفوة، ويعتبره شيء مضمّر في حديثه عن النفس، "لأن الفكرة الديكارتية عن الجسد الإنساني من حيث هو إنساني غير مغلق، منفتحاً من حيث هو محكوم من طرف الفكر، ولعلها الفكرة الأعمق عن وحدة النفس والجسد، إنها النفس الحالة في جسد، هو من قبيل الـ في ذاته"<sup>11</sup>.

فالذي نريد سوقه هنا، هو تبيان بأن معظم هذه التعاريف الكلاسيكية لمفهوم الإنسان، قد صارت غير مناسبة لفهم أنفسنا، ومن ثمة توجب علينا البحث عن تعاريف جديدة، تكون أكثر إيفاءً بخصائص الظاهرة الإنسانية، خاصة بعد ولوج العلوم التي تدرس الإنسان مرحلة العلمية، ومن هنا يأتي استعمالنا لمصطلح الإنساني

---

<sup>11</sup>موريس مرلوبونتي، المرئي واللامرئي، ترجمة عبد العزيز العيادي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2008، ص352.

مُضمراً لادعاء منهجي، يلمح إلى أن الفلسفة لم تستطع أن تفي به إلى حد الآن، فمن مفارقات شؤون الفلسفة، أنها كثيراً ما تعد بتطبيق الأحكام المسبقة، وتقسم بأن تهجر الدوغماتيات وتتحرر من التقليد، لتخلص إلى الحقيقة المحضة في ضرورتها الصارمة، وكونيتها التامة، ويقينها الذي ينتفي معه كل شك، ولكنها سرعان ما تباغتنا بعودة المطعون فيه، والتوكيد على استقامته والانتصار إليه، وكأن تلك الحالة مجرد تقنية استيعاب، تستمد سلطتها من الموروث الفكري، لتحصر الإنسان في إطار الذات المفكرة، والتي طالما أكدت الفلسفة الباشلارية على عدم جدواها.

وجليّ بالذكر أن تلك العملية تمس جهة ما من وجود الإنسان، لا طبيعته ومظهره، بما أنه كائن يؤدي وظائفه الحيوية بأجهزته البيولوجية، ويتوقف عن الوجود إذا توقفت هذه الوظائف عن أداء مهمتها.

**خلاصة:** من هنا يمكن القول بأن الحكم الأخلاقي يمكن أن يصدر من هيئة محددة بغض النظر عن الاختلاف الذي نجده عند الفلاسفة، سواء كان ضمير أو مجتمع أو عقل أو دين... لكن الحكم البيوايثيقي أعقد من أن تستطيع جهة محددة أن تصدره، فهو يتبلور نتيجة نقاش لكثير من الأطراف، لأنه أعقد من أن نستطيع صياغته في حكم واحد يحمل صفة الإطلاقية.

## المحاضرة الثالثة: مبادئ الطب الكلاسيكي والبيوايطيقا

### أهداف المحاضرة:

- 1- الكشف عن الأرضية التاريخية في الطب الكلاسيكي.
- 2- التعرف على مبادئ الطب الأبقراطي والجالينوسي.

### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- المنطلقات الطبية لتشكل المفهوم.
  - أ- فلسفة الأخلاق الأبقراطية .
  - ب- فلسفة الأخلاق الجالينوسية.
- 3- خلاصة.

### تمهيد:

لا يمكن فهم طبيعة مصطلح ما إلا من خلال تتبع مسار تطوره، وكذا العوامل التي ساعدت على بعثه ونحته، صحيح أن هذا المصطلح لم يكن له الحضور اللافت في الكتابات المتخصصة، أو حتى في الكتابات الصحافية إلا مؤخرًا، وبالتحديد بداية من سبعينيات القرن الماضي، حيث ظهر استعماله بشكل واضح في كتاب بعنوان "البيوايطيقا جسر إلى المستقبل"، الذي هو في الأصل مقال مطور للكاتب الأمريكي

"فان رانسلىر بوتىر"، لكن يمكن القول أن هذا الكتاب أو قبله المقال لم يكن ليعطى للمصطلح حضوره اللافت استعمالاً ومدارسة بالشكل اللازم، لذا يمكن تجاوز هذا الاستعمال، والقول بأن الذى جعله حاضراً وبشكل فرض نفسه فى مختلف الكتابات، سواء كانت متخصصة أو لا، هو دخوله إلى مختلف القواميس، بداية من سنة 1980م<sup>12</sup>، كما أن تاريخ الاستعمال لا يكفي لفهم طبيعة المصطلح، بل يجب البحث عن الخلفيات الفلسفية والتاريخية التى جعلت منه مبحثاً قابل للتطور وتكوين حقل بحث خاص به، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن أهم الإرهاصات التى ساهمت فى بروز البيوايتيقا.

لقد ساهمت الكثير من الفلسفات التى ظهرت فى فترات زمنية مختلفة وفى إمكانية كذلك مختلفة فى بعث الاهتمام بالقضايا الأخلاقية فى مجال الطب والبيولوجيا، وقد يكون بعضها قديم قدم الممارسات الطبية المعاصرة فى حد ذاتها، ومن هذه الفلسفات نجد:

---

<sup>12</sup> عبد الرزاق الدواى، حوار الفلسفة والعلم والأخلاق فى مطلع الألفية الثالثة، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع، 2004، ص 48.

## 1- فلسفة الطب التقليدي ونموذج الطبيب المتخلق عند أبقراط وجالينوس:

### أ- فلسفة الأخلاق الأبقراطية:

كما أنزل سقراط (Socrate) (469-399 ق.م) الفلسفة من السماء إلى الأرض، أخرج "أبقراط" الطب من المعابد وأرجعه إلى الطبيعة، أين أصبح الطب ممارسة وفن له أهله، "لأنه لا يمكن لأي ممارسة أن توفر لنظرية ما معطيات صالحة، وقابلة للاشتغال نظريًا إلا إذا كانت هذه النظرية قد ابتكرت أولاً، وعرفت شروط الصّلاحية التي تستقبل بموجبها المعطيات، وهذا يعني أن أي بحث يستعمل تلك الممارسات التي سبق لها أن طبقت، ينبغي بعد ذلك أن يفهم ليستطيع توجيه تلك الممارسات، وإذا كان صحيحًا أن هناك غالبًا مسافة بعيدة بين النظرية والممارسة، فليس أقل صحة من ذلك أن ليس هناك ممارسة تؤسس بذاتها نظرية في البيولوجيا، كما في باقي العلوم"<sup>13</sup>.

من هنا قد تظهر الممارسات التي كانت تقوم بها الأبقراطية بسيطة، إلا أنها كانت أساس للكثير من النظريات الطبية بعدها، والتي اعتمدت على ممارسات كانت تعود بالمرض إلى الطبيعة "لأنه مثلما يؤمن بعض الفلاسفة بالفلسفة الخالدة، مازال الكثير من الأطباء اليوم يؤمنون بالطب الخالد والأصلي، إنه الطب الأبقراطي"<sup>14</sup>.

<sup>13</sup>G. Canguilhem, *Idéologie et rationalité dans l'histoire des sciences de la vie*, édition J.Vrin, 1<sup>ère</sup> édition, Paris, 1977, pp 107-108.

<sup>14</sup>G. Canguilhem, *Etudes d'histoire et de philosophie des sciences*, op-cit, p 132.

إن ما يحسب للأبقرائية، هو رفضها لفكرة أن المرض باعتباره لعنة إلهية، وبأنه روح شريرة تسكن البدن الإنساني، بل هو اختلال طبيعي يحدث في الإنسان، نتيجة لسبب من الأسباب، يمكن كشفه من خلال الفحص<sup>15</sup>، فالشخص المريض عند أبقرات شخص طبيعي، يمكن التخلص من مرضه عن طريق العودة به إلى الطبيعة الشافية، حيث اعتبر بأن هناك أسباب ظاهرة يمكن ملاحظتها في المرض، وتتم هذه الملاحظة من طرف طبيب متمرس له دراية بالأعراض، وإذا عرف هذه الأعراض عن طريق الملاحظة، تمكن من التحكم فيها، انطلاقاً من التحكم في الأخلاط<sup>16</sup>.

إن المكانة التي احتلتها التقنية في الممارسات الطبية لتلك الفترة، كانت محدودة الجوانب، قصيرة الاستعمال والتأثير، وهذا الحكم شمل المبادئ التي جاء بها أبقرات، فعندما يتعلق الأمر بالاستطباب لدى الأبقرائيين، يتجه المريض مباشرة إلى الطبيعة، دون اللجوء إلى أي طريقة تدخلية، قد تساهم في تأخير الشفاء أو تغيير مجرى المرض، ومن بين هذه التدخلات الأدوات التقنية بشتى أنواعها. من المحتمل جداً أن يكون هذا التقصير في اللجوء إلى التقنية، راجع إلى الانغلاق والتقليد في التعليم الطبي الممارس في تلك الحقبة، باعتبار أن الطب صنعة يمارسها

---

<sup>15</sup>L. Bourgey (sous la direction de René Taton), La Science antique et médiæle, P.U.F, Paris, 1957,p280.

<sup>16</sup>Danielle Gurvitch, Le sang dans la médecine antique, revu de la recherche, 254, éditions scientifiques, Mai 1993, p 510.

الحكيم الذي يترفع عن الأشياء الحسية، أو يكون ذلك راجع إلى التأثير بفكرة احتقار الصنائع، التي كانت رائجة لدى اليونان، وبهذا الشأن كان موضوع البحث، الموروث عن الحضارة اليونانية، يتناول بصورة أساسية الأمراض، وفق طريقة المشاهدة أو مراقبة مراحل تطور المرض، ولهذا سمي الطب الأبقراطي "بطب الملاحظة" *medicine d'observation*.

إنّ الطبيب الحاذق لدى التصور الأبقراطي، هو الذي يتمكن من التنبؤ بالأيام الحرجة التي يمر بها المريض، وهذه الملاحظات لا تستند إلى تقنيات أو فحوصات يقوم بها الطبيب المعالج، وإنما تقوم على المشاهدة المباشرة للمريض، ولمراحل تطور حالته، والبيئة المحيطة به<sup>17</sup>، لأن هذه الطريقة "لا تُهمل أي جانب من جوانب الذات، بل تركز على وضعية المريض ككائن حساس، له ماضٍ مر عليه، وكذا له طريقته في العيش، لتشمل هذه الملاحظة الغذاء واللباس والمسكن والوسط... فلا يقتصر الطبيب فقط على الأعراض"<sup>18</sup>، التي قد تتشابه في بعض الأمراض، وغالبًا ما تفرز هذه المشاهدات توقعات بالحالة التي سيتطور إليها المرض.

إنّ الطبيب عند الأبقراطيين من صفاته المهنية، الوثوق ثقة مطلقة في الطبيعة، والأمور التي يقدمها لمريضه، وجب أن تكون مستخلصة منها، لأن عمله يكمن في

---

<sup>17</sup>D. Lecourt (sous la direction), Dictionnaire de la pensée médicale, op-cit, p 437.

<sup>18</sup>A.Fagot, philosophie et médecine en hommage à G.Canguilhem, Librairie philosophique, J.VRIN, 2008, p17.

مساعدته على الرجوع إلى أصله الطبيعي، فمتى فهم سر الطبيعة وتكوينها، فهم حقيقة المرض وتمكن من إيجاد العلاج المناسب، وبالتالي توصل إلى "الترياق" الشافي، ولو أن أبقراط في كتابه "التدبير الصحي في الأمراض الحادة"، يركز في طلب الشفاء للمريض على تحسين نظامه الغذائي، ولا يرجع إلى الأدوية إلا نادراً<sup>19</sup>، وتكون هذه الأدوية مستخلصة من الطبيعة، التي خبرها الطبيب عن طول تأمل، وهذا ما يوحي بدور الملاحظة في المدرسة الأبقراطية، حيث كان الانتباه لدقائق المعرفة الحسية ضرورياً بشكل خاص، عندما كان يراد الحصول على معلومات دقيقة عن حالة الجسم، ولكن القيام بهذه المهمة تقتضي تدريباً خاصاً كان الطبيب المبتدئ يتلقاه بمرافقة الطبيب المعلم، وهو إتقان فن الملاحظة.

## 2- جالينوس Galien والأمزجة الطبيعية:

إن التعرض هنا إلى جالينوس (129-216م) وموقع الممارسات الطبية عنده وعلاقتها بالأخلاق، وكذا ملاحظاته البيولوجية، لا يجعلنا ذلك نؤرخ لنظرية في الطب، ولا إلى معاناة المرضى مع مختلف الأمراض حسب التوصيف الجالينوسي في مصنفاته المختلفة، فسؤالنا قد يمر بالصورة نفسها وبالأسباب نفسها على كل العهود، لأن أطباء اليونان وحتى الرومان "قد اهتموا بتبرير المسبقات النظرية لممارساتهم،

---

<sup>19</sup>ابن النفيس، شرح فصول أبقراط، مرجع سابق، ص 19.

بأن أخذوا من هذه الفلسفة أو تلك من فلسفات عصرهم، نظرياتهم في المعرفة<sup>20</sup>، من هنا فالعملية التراجعية هي عملية تأسيسية لما يأتي بعدها.

لقد رسبت الكثير من الآثار الأفلاطونية والأرسطية في التحليل الطبي والبيولوجي لدى جالينوس، والتي تجعله في بعض الأحيان، يقدم تحليلات ساذجة لبعض الأمراض، وكذا الطريقة التي اعتمدها في تقديم العلاج، المستوحاة من نظرية الأخلاط أو الأمزجة، التي تعتبر بأن الإنسان مجرد صورة مصغرة للعالم الأكبر، وهذا ما يجعل مصيره مرتبط بما يجري في هذا العالم، ولا يجب علينا أن نتدخل فيه إلا بالقدر الذي يساعده على بلوغ تلك الغاية.

إن النظرية البيولوجية الجالينوسية تبدو وكأنها بناء معقد، نعثر فيه على الكثير من التوصيفات الطبية، التي تصاحبها في الكثير من الأحيان نظريته في العناصر الأربعة، وعلى القوى الخفية، التي تتحكم في مصير المريض، فالحياة حسبها لها ثلاثة أشكال، وهذا من إرث أفلاطون في الكائن الأعلى: النفساني، والحيواني، والنباتي، وهذه الأشكال ترعاها ثلاثة أنواع من النسمات أو الأنفس المقابلة: النسمة النفسانية ومركزها الدماغ وهي تجتاز المركز العصبي، والنسمة الحيوية ويوزعها القلب والشرايين، والنسمة الطبيعية ومكمنها الكبد وتتجول مع الأوردة<sup>21</sup>، وكل قوة تتحكم

---

<sup>20</sup>G.Canguilhem, Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, op-cit, p 413.

<sup>21</sup>D.Lecourt (sous la direction), Dictionnaire de la pensée médicale, op-cit, p18.

بنشاط خاص في الجسم، مثل القوة الجاذبة والقوة المانعة أو الحابسة والمتغيرة والدافعة والمُفرزة، وكل منها تتحكم في وظيفة فيزيولوجية معينة مثل الهضم والتنفس والنمو<sup>22</sup>. وهذا لأن جالينوس يرى بأن الإنسان ليس شيئاً واحداً، ولو كان شيئاً واحداً، لما كان يألم أصلاً، ولو أنه كان يألم، لوجب أن يكون ما يشفيه شيئاً واحداً<sup>23</sup>، فهذا التقسيم يتوافق مع التقسيم المقبول آنذاك للعالم الأكبر، الذي يمثل الإنسان صورته المصغرة، وهي العناصر الأربعة: النار، والهواء، والماء، والتراب، وكل منها يتميز بصفة أولية، كالسخونة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، والمرض يحدث نتيجة أي اختلال في هذه الخصائص، وهي الأخرى تقابل الفصول الأربعة للسنة، صيف وشتاء، ربيع وخريف، التي تؤثر على عمل الجسم وأعضائه، ومنها نبض الإنسان "ففي أوقات السنة يتغير النبض على هذا المثال: أما في وسط الربيع فيكون النبض أعظم، وأقوى ما يكون بحسب أوقات السنة، ويكون في السرعة والتواتر معتدلاً، وعلى هذا المثال يكون في وسط الخريف، وكل ما بعد من وسط الربيع من عظم النبض، ومن قوته، وزاد في سرعته وتواتره، ثم إذا جاء الصيف صار النبض ضعيفاً، صغيراً، سريعاً، متواتراً"<sup>24</sup>.

---

<sup>22</sup> رنيه تاتون (تحت إشراف)، تاريخ العلوم العام، المجلد الأول، مرجع سابق، ص 408.

<sup>23</sup> جالينوس، في الاسطفسات على رأي أبقراط، مرجع سابق، ص 38.

<sup>24</sup> جالينوس، كتاب جالينوس إلى طوثرون في النبض للمتعلمين، ترجمة أبي زيد حنين ابن إسحاق العبادي المتطبب، تحقيق محمد سليم سالم، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1985، ص 39.

إن التجربة عند جالينوس قد تحدث الفرق بين العالم والجاهل، لذا نجده حازمًا في هذه المسألة في كثير من الوصايا التي وجهها لطلبته، ولأدلّ على ذلك ما حوته تلك الوصية التي وجهها لصديقه الذي ألف لأجله رسالة بعنوان "إلى طوثرين في النبض للمتعلمين"، حيث يقول فيها: "وليس يمكنك أن تعرف النبض الخاص بكل واحد من الناس على حقيقته إلا بالتجربة فقط، ولذلك قد ينبغي لك أن تجس عرق الإنسان الواحد مرارًا كثيرة، ولا سيما في وقت صحته وسلامته من الآفات، وسكونه من كل حركة قوية، ثم تجسه إذا خالفت حاله هذه الحال"<sup>25</sup>.

إن هذه الملاحظات المتناوبة والمتكررة من طرف الطبيب المعالج، تثبت رغبة جالينوس في الدعوة إلى ممارسة الطب التجريبي، والكف عن التعميمات النظرية، رغم ما تخفيه هذه الرغبة من عناء سيكابهه الطبيب، إلا أنها ستجعله أكثر علمًا من ذي قبل "إلا أنه لما كان لا يمكن للمتطبب أن يعرف بالتجربة نبض جميع الناس، لأن كثيرًا من الناس مرارًا كثيرة قد احتاجوا إلى أطباء لم يلقوهم وهم في صحتهم، فالأجود أن يكون في هذا الباب أيضًا للعالم فضل على الجاهل، وفضل العالم على الجاهل في هذا الباب، أن تكون عنده معرفة بالأمر التي هي لأكثر الناس على حالٍ واحدة"<sup>26</sup>، لذلك اعتبرت التجربة هي طريق العلم النظري عند جالينوس.

---

<sup>25</sup> جالينوس، كتاب جالينوس إلى طوثرين في النبض للمتعلمين، مرجع سابق، ص 32.

<sup>26</sup> المرجع السابق، الصفحة نفسها.

## خلاصة:

يعتبر الطب الكلاسيكي من العوامل التي سهمت في التحضير للفكر البيوايبيتيقي، وخاصة الطب الذي وضع مبادئه أبقرط باعتباره طب انتظاري يعتمد على القوة الشافية التي تملكها الطبيعة في تحقيق الشفاء للمريض، وما على الطبيب إلا العمل على مساعدتها وتوفير الشروط لها، وبدرجة أقل نجد الطب الجالينوسي الذي يعتبر تدخلها بما أن الطبيعة ليست مسؤولة عن الشفاء، لكن كل منهما يتخذ من الأخلاق الطبية مسارا ضروريًا لتحقيق الشفاء.

## المحاضرة الرابعة: البيوايتيقا والثورة في علم البيولوجيا

### أهداف المحاضرة:

- 1- التعرف على تاريخ أفكار الطب والبيولوجيا.
- 2- تعلم تقنية استنباط المنطلق من خلال استقراء التاريخ.

### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- سؤال البيولوجيا أو سؤال الجسد.
- 3- فيزال وبداية تشريح الجسد.
- 4- داروين ونموذج الكائن الحي.
- 5- كلود برنارد والتأسيس للطب التجريبي.
- 6- خلاصة.

### تمهيد:

لقد كان الإنسان وإلى وقت قريب، يعتبر نفسه مركز الوجود، في هذا الكون المغلق والمرتب بشكل نهائي، له محور يعود إليه وهو الأرض، وله مدى ينتهي عنده وهي النجوم، وله شكل يحويه وهو الشكل الدائري، الذي يعتبر أكمل الأشكال الهندسية على الإطلاق.

تصور استولى على الفكر البشري طيلة ما يقارب عن ألفي سنة، وعلى هذا التصور بنا الإنسان نسقه الفكري ومنظومته الكوسمولوجية، وتموضع داخلها، أين يمكنه أن يراقب كل شيء من المكان الذي وضعه لنفسه حسب بنية الكوسموس Cosmos اليوناني<sup>27</sup>، أو حسب المنزلة التي وضعها له خالقه في التصور الديني.

إن هذا التصور لمكانة الإنسان، يسوقها في نص وصف بالرائع لـ"جاكوب بوركارت J.Burkhardt، يورده بيك ديلا ميراندول P.D.Mirandole، في كتابه "خطاب في كرامة الإنسان" Discours sur dignité de l'homme، أين يجسد لنا فيه هذا المعنى، حينما يقول الخالق مخاطباً الإنسان الأول: "لقد وضعتك في وسط هذا العالم، من أجل أن تستطيع بسهولة أن تسبح بنظرك فيما حولك، وأن ترى جيداً ما يحتويه، وعندما جعلتك كائناً لا هو بالسماوي ولا هو بالأرضي، لا هو بالفاني ولا هو بالأزلي، إنّما أردت بذلك أن أعطيك القدرة على أن تصنع نفسك بنفسك، وعلى أن تنتصر عليها، إنّك لتستطيع النزول إلى حضيض البهائم،

---

<sup>27</sup> منذ القرن الخامس تقريباً قبل الميلاد كان معظم فلاسفة اليونان قد تشكلت لديهم فكرة، وهي أن السماء قبة مغلقة، فيها نظام محكم التنظيم، يمكن لكمالها أن يعتبر رمزاً للجمال، ولقد كان لفظ "كوسموس" يشمل في ذاته المجموع اللامنفصل لهذه الدلالات، وكان أفلاطون قد قدم عن هذه الكوسمولوجيا الصيغة الأولى المبلورة في محاوره "تيماس" Timée، وفيه يكتمل في صورة أسطورية، هذا النظام يتخذ من الأرض مركزاً ثابتاً، ويظهر هذا النظام على شكل دائري، ولهذا اعتبرت الدائرة أكمل الأشكال الهندسية. (أنظر: محاوره تيماس من كتاب أفلاطون: المحاورات الكاملة، المجلد الخامس، ترجمة شوقي داود تماراز، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، 1994، ص ص 379-497)

وأن تصعد حتى تصبح كائنًا إلهيًا، فالحيوانات عندما حلت في العالم، كانت مزودة بكل ما يلزمها... وحدك أنت الذي تستطيع أن تكبر وأن تتطور كما تريد، إنك تحمل في ذاتك بذور الحياة بشتى أصنافها"<sup>28</sup>.

وهنا قد يتداخل مفهوم الإنسان مع مفهوم الكون، مع أن سؤال ما شكل الكون؟ لا يمكن رده إلى سؤال من هو الإنسان؟ وكيف ساهم هذا التطور في إحداث ثورة في مجال الطب والبيولوجيا؟

### 1- سؤال البيولوجيا أو سؤال الجسد:

يعد سؤال الجسد متأخرا عن سؤال الكون، فالأول يمكن إرجاعه إلى الفلسفة الطبيعية، أما الثاني فقد بدأ تدشينه مع سقراط Socrate، ولا يعني ذلك أن السؤال الأول لم يناقشه سقراط، فمثل هذا السؤال يعود بنا إلى الجدل الأفلاطوني الذي تحتل فيه هذه الأسئلة المكان الرئيس، وبالتحديد نرجع به إلى محاوره "تيمائوس"، فهناك سأل سقراط محاوره عن الكون، هذا السؤال الذي استدعى من خلاله الحديث عن الأرض والنجوم والكواكب والروح والجسد والإنسان، لينتهي بهما الحوار إلى اعتبار "هذا العالم، متلقيا وشاملا تماما وكماله من الحيوانات الخالدة والفانية، صير هكذا حيوانا منظورا محتويا للطبائع المرئية، إنه صورة الله المدرك بالعقل"<sup>29</sup>، وفي هذا التصور للكون عند أفلاطون، والذي سيسيئر لقرون على التصورات اللاحقة، نلمس

<sup>28</sup>G.Canguilhem , Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Op-cit, p 35.

<sup>29</sup>أفلاطون، المحاورات الكاملة، المجلد الخامس، مرجع سابق، ص 497.

تلك النزعة التشبيهية التي تعتبر العالم الأصغر (الإنساني)، صورة مصغرة للعالم الأكبر (الكوني)، كما كانت تشبيهاتها للجسم الإنساني مستندة على تصورات ميتافيزيقية كالرأس الذي تقابله النفس العاقلة، والبطن الذي تقابله النفس الشهوانية، والأطراف تقابلها النفس الغضبية، لكن هذه النزعة رفضتها في العصر الحديث الكوسمولوجيا والبيولوجيا على حد سواء<sup>30</sup>، خاصة بعد الكشوفات المتتالية في علم الفلك مع غاليليو GalileoGalilei (1564-1642م) وكوبرنيك.

لقد تعود الإنسان قبل الكشوفات الغاليلية، أن يرى العالم من خلال علم أرسطو طاليس، المندمج في اللاهوت الكاثوليكي، أين كانت الحركة لديه تمثل شذوذاً للأشياء، لذلك أن الأشياء من طبيعتها أنها متجهة للتوقف عن الحركة حالما تحصل على مرادها من الشوق، وكل حركة أرضية تنزع لها الكائنات الحية هي نوع من المرض الذي يبعد الجسم عن حالته الفيزيولوجية، بينما يكون الأصل فيها السكون، والأرض والسماء متقابلين تقابل التضاد، بما أن الأرض تحوي عالم الفساد والتغير، والسماء عالم الأزلي والساكن، وكل حركة تجري في هذا الكون هي تقليد لحركة الأفلاك التي تتحرك في السماء، وهذا الكون المتراتب بهذا الشكل، يتميز فيه كل كائن بخاصية تعطيه بصورة طبيعية مكاناً تراتبياً يماثل جسم الكائن الحي ذاته، فكأنه كائن حي يدخل في تكوين كائن حي آخر أكبر منه، الذي يكون

---

<sup>30</sup>G.Canguilhem , Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Op-cit, p 30.

بدوره جزء من كائن حي أكبر وهكذا يتحقق الانسجام والتوافق في الكوسموس اليوناني، حيث يكون كل جزء متضامن مع الجزء الآخر، وهذا الكل متكامل فيما بينه ومنغلق على نفسه أي يصعب اختراقه أو تشويبه أو حتى إعادة ترتيبه<sup>31</sup>.  
لكن هذا كله تغير مع الصدمة الأولى التي تلقتها هذه الأفكار، خاصة أمام التطورات الكبيرة والمتسارعة في علوم الفيزياء والبيولوجيا، وفي صميم هذه المناقشات ستضيع في الأغلب أسماء معظم مكتشفي هذه الأفكار، لأن جهدنا سينصب على استقرار ذلك الانقلاب اللامتوقع لمعنى الإنساني، الذي سئسكنه هذه الكشوفات التقنية كونًا جديدًا، له شكل مغاير لما كان عليه، وستبدو مسألة الكون هذه متضمنة بالضرورة لمسألة المعرفة بالإنسان، وذلك لارتباط الإنسان بالعالم الذي يعيش فيه.

## 2- تشريح الجسد الإنساني:

لقد كان فيزال Vésale الطبيب الملكي<sup>32</sup>، يقدم الإنسان كبنية لا يقابلها إلا الإنسان ذاته، فهو مرجع ذاته ومقياسها، وإن كان في عمله يهتم بتشريح بعض الحيوانات كالقروود، فإنما كان يفعل ذلك من أجل التأكيد على أن هناك اختلاف تركيب بين الحيوان والإنسان أكثر من البحث عن تماثلات وظيفية بين النوعين<sup>33</sup>، حيث كانت هذه أهم نقطة لم يستصغها فيزال من جالينوس، خاصة عندما تجاهل

<sup>31</sup>Ibid, p 39.

<sup>32</sup>Michel Sakka, histoire de l'anatomie humaine, P.U.F, 1<sup>er</sup> édition, Paris, 1997, p74.

<sup>33</sup>Ibid, p 30.

تعدد الاختلافات بصورة لا متناهية بين أعضاء جسم الإنسان وأعضاء جسم القرد، أين كانت هذه المقارنات التماثلية بين الجسمين، غالبًا ما تتسبب ذلك الفرق الذي يحدثه الإنسان بنشاطه عن الحيوان، كما أن استجابتهما للدواء مختلفة تمامًا، وذلك يعني أن التصور السليم لنوعية الممارسة التشريحية، لا يكون ممكنًا إلا بالنظر إليها من خلال المحددين: النظري العلمي والعملية التشريحية، وهذا لأن عضوية الإنسان لا يمكن فهمها على الوجه الصحيح، طالما وقعنا تحت الضغوط التي يمارسها البعد العملي التشريحي للحيوان، وهذا ما جعل كانغيلام يرى في فيزال عين الطبيب وليس مجرد عالم للطبيعة، وأنه من أجل خدمة الفيزيولوجيا قام بإعادة بناء المعرفة التشريحية للإنسان<sup>34</sup>.

إن اكتشافات كوبرنيك في علم الفلك، واكتشافات فيزال في علم التشريح، لا يزالان يحتفظان إلى اليوم بقوتهم الرمزية للإشارة إلى ذلك الانعتاق من المعنى القديم لحقيقة الإنسان، وبروز معنى جديد للطبيعة الإنسانية، لقد أزاحت اكتشافات وحسابات كوبرنيك الأرض وما تحمله على ظهرها عن مركزية الكون، وحلت الشمس محلها، وأصبحت الأرض بذلك مجرد كوكب له ترتيب معين في المجموعة الشمسية، كغيره من الكواكب التي تتخذ من الشمس محور لدورانها، كما اعتبر

---

<sup>34</sup>Ibid, p 30-31.

ذلك الكائن الإنساني المالك لسيادة هذا الكون مدة قرون، كائنًا ضمن مختلف الكائنات الموجودة، والتي يتقاسم معها هذا الوسط.

لقد مارس كتاب فيزال المعروف اختصارًا بالفابريكا<sup>35</sup> *De humani corporis fabrica*، رفضًا ومراجعة للرأي الأرسطوطاليسي والجالينوسي، حيث كان تصور كل واحد منهما مبني على ملاحظات تشريحية لبعض الثدييات، التي اعتبرها بديلا عن الجسم الإنساني في دراسة المورفولوجيا الداخلية<sup>36</sup> *Morphologie* للإنسان، أين ساهمت هذه الانتقادات في تقدم المعرفة التشريحية للجسم البشري، وأصبح هناك دور جديد للمصطلحات البيولوجية، كما تغير مشارها عندما تخلصت في طياتها من تلك النظرة الأنثروبومورفية (تشبيهية) الكونية، والتي تستمد شكلها من العالم الأكبر، كما هو الشأن للتماثل الموضوع بين العين والبيضة والعالم.

لقد تغيرت نقطة الانطلاق، سواء من الجزء إلى الكل أو من الكل إلى الجزء، في الدراسات التشريحية الفيزيائية، أين أصبحت المصطلحات والمفاهيم المستخدمة تحمل طابعًا تقنيًا لا أنثروبومورفيًا، لقد حاول فيزال أن يعطي براهين على صحة تشريحه للإنسان، من خلال الرجوع في عمله التشريحي إلى الإنسان ذاته، لأنه

---

<sup>35</sup> "De humani corporis fabrica" وهو الكتاب الذي طرح فيه فيزال نظريته حول اختلاف الإنسان عن باقي الحيوانات في بنيتة التشريحية.

<sup>36</sup>G.Canguilhem , Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Op-cit, p32.

كان يهدف إلى تحقيق ممارسة واقعية للعلم، بدل الاقتصار على التّظهير، رغم أن جالينوس كان يستعمل بعض التقنيات في تشريح جنث الحيوانات ثم يعمم ذلك على الإنسان، لكن فيزال بدا له ذلك محاولة فيها الكثير من التّظهير، الذي يبعدنا عن الممارسة الحقيقية لفعل الطب، لأن العمل من أجل المعرفة شيء واستعمال المعرفة من أجل العمل شيء آخر<sup>37</sup>.

### 3- نموذج الكائن الحي:

تعتبر الأفكار الداروينية منطلق الكثير من الاكتشافات في علم البيولوجيا، إن الحيوان حسب داروين لديه عواطف وحيل، كما أنه يشترك ويفضل ويعتقد، وله القدرة على التجريد والاستدلال، ويعطينا داروين عدة أمثلة عن وجود هذه العمليات لدى الحيوانات، منها مثلاً القدرة الاستدلالية لثعلب التقريظ Renard de l'Apologie، الذي كان سكان التراس LaThrase يستخدمونه من أجل معرفة سُمك الجليد، وينسب داروين لكلبه شكلاً من أشكال الاعتقاد في الأرواح "ذلك عندما كان ممدداً على العشب فسمع أصواتاً، لم يستطع تحديد مكانها فخاف وانزوى لدى صاحبه، بطريقة تشعر صاحبه بأن شيئاً ما هدهده... إن الكلب ينظر إلى سيده

---

<sup>37</sup>Idem, p32.

كأله<sup>38</sup>، كما أن القرد يميل إلى تقديس صاحبه... إلى غير ذلك من السلوكات التي تصدر عن الحيوانات، وهي تؤكد في مجملها حسب داروين وجود مثل هذه العواطف. كما أن هذه السلوكات المختلفة، توحى حسب داروين بأن التصنيف الذي يضع الإنسان على قمة الهرم قد تعرض لصدمة قوية، فصفة مفكر أو حكيم Sapiens التي طالما اقتصر الإنسان على وصف نفسه بها، ستصبح لاحقاً منسوبة إلى حيوان ما، لكن السؤال الذي سنطرحه هنا ليس حول قيمة هذه الآراء، بقدر ما يهمنا أن نتساءل عن موقف كانغيلام منها، هل تقاجاً كانغيلام من هذا الذي ساقته تحليلات داروين؟

يعتبر كانغيلام بأن هذا ليس بالأمر الذي يجعلنا نجزم داروين، بل بالعكس، فهذا يجعلنا ندرك الحدود التي يفرضها مشروعه، كما أن هذا فيه اعتراف من طرف داروين بأن الحي حي بفرادته وتميزه عن المادة الجامدة<sup>39</sup>، ثم إن تعرضه للجانب النفسي لدى الحيوان جعلنا نقرب من فهم طبيعة العلاقة القائمة بينه وبين الإنسان.

إن الإنسان يدرك من طرف الحيوان باعتباره حيواناً مثيراً، هذا ما يجعله يحاول أن يترك بينه وبين هذا الحيوان المثير مسافة، يحافظ بها على خصوصيته ووسطه، أما الحيوانات الأليفة خاصة القريبة من الإنسان تحاول أن تقترب بأكبر

---

<sup>38</sup>Ch. Darwin, La descendance de l'Homme et la sélection sexuelle, op-cit, p72.

<sup>39</sup>G.Canguilhem, Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, op-cit, p 122.

قدر ممكن لأنها تحس بالأمان معه، خاصة تلك الحيوانات التي تحتفظ في ذاكرتها بماضيها الذي يحوي مجموعة الصور، التي تبين تعاطف سيدها معها<sup>40</sup>. إن كل حيوان له تراتبيته الخاصة، منفصلاً عن مكانة الإنسان حسب داروين، فهو ينظر إليه انطلاقاً من تجربته معه، ولذلك أصبح ممكناً تأويل السلوك الحيواني انطلاقاً من المعنى الذي يعيشه الإنسان بصورة واعية، ذلك جعلنا ننظر إلى الإنسان كحيوان متطور، على عكس النظرة السابقة التي كانت ترى بأن الحيوان هو كائن أدنى من الإنسان، وهكذا يقع الاعتراف بالحيوانية من أجل فهم الإنسانية<sup>41</sup>.

إذن الكثير من المحطات التي عرفها الفكر الكوسمولوجي والبيولوجي عبر تاريخهما، قد ساهمت في تشكيل صورة الإنسان المعاصر عن ذاته، لقد تلقى عدة طعنات أفقدته توازنه، فحاد بذلك عن المركز، وأصبحت الكثير من القضايا التي كانت تعتبر في الهامش تكوّن طبيعته.

---

<sup>40</sup>Ch. Darwin , La descendance de l'Homme et la sélection sexuelle, op-cit, p 77.

<sup>41</sup>G.Canguilhem , Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Op-cit, p 125.

#### 4- نموذج الطب التجريبي:

لأن المنهج التجريبي عند كلود برنارد هو شيء أكثر من رمز لتقنية مخبرية، إنه فكرة لعلم الأخلاق<sup>42</sup>، باعتبار أن كلود برنارد هو من منح للمخبر حق التعامل مع علوم الحياة، من خلال تلك الخطوات الشجاعة التي صاغها ليتعامل مع الكائن الحي.

وهذا هو التداخل الرمزي بين الفعل الذي قام به بروميثيوس والعمل الذي قدمه برنارد، فبواسطة تلك النقلة التي قدمها كلاهما يصبح الإنسان مبتكرا للظواهر، معلماً حقيقياً للخلق، ولا نستطيع من هذه الزاوية أن نرسم حدوداً للقوة التي يمكن أن يكتسبها حيال الطبيعة، فبواسطة التقدم المستقبلي للعلوم التجريبية، وعلى صعيد التقنية ذاتها، يتضح لنا تصور عام لنظرية علم الحياة، التي بلورها كلود برنارد، وترجعنا هذه النظرية التي جاء بها برنارد، وكذا الأسطورة التي جسدها بروميثيوس، إلى فلسفة العلم الممارساتي في الحياة<sup>43</sup>.

وإذا فهمنا هذه المعادلة، يمكننا أن نتبين أنه في أي حالة مرضية تكون الحالة الصحية ماثلة أمامنا، لأن الحالة المرضية تمثل بمظاهرها قوى الطبيعة التي تريد أن تسيطر على الإنسان، والصحة هي رمزية الرجوع إلى الحالة الأولى، بل هي

---

<sup>42</sup>G.Canguilhem , Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Op-cit, p 153.

<sup>43</sup>Ibid,p 154.

واقعة نظرية تكونت تكويناً تاريخياً وتقنياً، من خلال تلك الجدلية القائمة بين الإنساني والتقنية والطبيعة، وهي علاقات تتسجها الاستيمولوجيا عند كانغيلام، التي لا يمكن أن تكون في استقلال عن الدراسة الانثروبولوجية والأخلاقية، فهو يعتبر بأن بحث الاستيمولوجي يشمل الإنسان في مختلف أبعاده وأنشطته، دون أن يكون عمله إقصائياً "وهكذا من خلال علاقة المعرفة بالحياة الإنسانية تتعري العلاقة الكونية، التي تربط المعرفة الإنسانية بالبنية الحية *L'organisation vivante*، فالحياة تكوين للأشكال أما المعرفة فهي تحليل للمادة غير المتشكلة"<sup>44</sup>، فهناك تداخل بين المعرفة وأنشطة الإنسان التقنية التي ترتبط بحاجاته الحيوية، وكلها يدخل ضمن خوفه من الطبيعة<sup>45</sup>.

### خلاصة:

ومن هنا نستنتج بأن اكتشافات الطب والبيولوجيا ليست وليدة اللحظة الراهنة، بل سبقتها الكثير من المحاولات والأفكار من طرف فيزيولوجيين وأطباء مغامرين بلغة الاكتشاف الجديد، وهذا ما نقل العلم من مجرد تصور لنظريات في علم التشريح قائمة على التوقع والتشريح المعتمد على الكائن الحي الميت، أصبحت هناك آليات

---

<sup>44</sup>G.Canguilhem , La connaissance de la vie, Op-cit, p11.

<sup>45</sup>Ibid, p 11.

جديدة لضبط هذا العلم تمكن من خلاله العلماء من تشريح العضو وهو يؤدي وظيفته،  
وهذا ساهم في بعث فكر أخلاقي جديد هدفه مواكبة هذه التطورات.

## المحاضرة الخامسة: البيوايتيقا والفلسفية

### أهداف المحاضرة:

- 1- التعرف على منطلقات الفكر البيوايتيقي الفلسفية.
- 2- مقارنة بين كانط وبرغسون في بناء المفهوم.

### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- أهم الفلسفات المؤثرة في نشأة المفهوم.
- 3- فكرة المبادئ الأخلاقية الكانطية.
- 4- برغسون ونموذج الأخلاق الجديد.

### تمهيد:

- 1- أهم الفلسفات المؤثرة في نشأة البيوايتيقا:

### أ- فلسفة الأنوار:

لقد ساهمت فلسفة الأنوار في إعادة بعث النظرية الأخلاقية في الممارسات الطبية، معتمدة على مبدأ إعلاء العقل وحرية الفرد، حيث عملت هذه الفترة على تغيير الكثير من النظريات وسعت إلى تحرير الإنسان من الكثير من القيود التي كانت تكبل

تفكيره، هذا الفعل هو الذي ساعد على تحرر المجتمع وانطلاقه نحو تحقيق الأفضل للإنسان<sup>46</sup>.

وأول من حرك هذه المبادئ هو الفيلسوف الفرنسي جون جاك روسو (1712-1778) باعتبار الحرية مبدأ كل الوجود الإنساني، وعندما تغيب الحرية تغيب معها الإنسانية، باعتبار أن الحرية منحة الطبيعة والأغلال من صنع هذا المجتمع<sup>47</sup>، ولهذا فالإنسان يحمل الخير في طبيعته الأولى، والفساد الأخلاقي ناتج عن التمدن والتقدم الذي أدخله الإنسان على طبيعته الأولى، فالعلوم والفنون تعمل على انحلال أخلاقنا وفسادها.

#### ب- فكرة المبادئ الأخلاقية الكانطية:

لقد رفع كانط منذ البداية شعارات أخلاقية دخلت فيما بعد ضمن صلب الممارسات الطبية، ومنها مبدأ الكرامة الإنسانية ومبدأ القيام بالواجب، ولذلك فإن راهنية كانط في التفكير البيوايثيقي المعاصر نابعة من طرحه لمشروعه الأخلاقي الذي أراده أن يكون مشروعاً متكاملًا، أساسه الحق والواجب، في جميع المجالات، وبما أن الحق كما أورده كانط هو "مجمل الشروط التي يتسنى في إطارها لحكم الفرد أن يتحد بحكم

<sup>46</sup> ماركوز هيربرت، فلسفات النفي، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الآداب، بيروت، 1981، ص 125.

<sup>47</sup> Jean-Jacque Rousseau, Du contrat social, discours sur l'origine et les fondement de l'inégalité, Edition classique Français, Paris, p 19 .

الأخر وفق قانون كلي للحرية<sup>48</sup>، باعتبار أن الحق لا يمكن الحديث عنه في غياب الحرية، فهي الضامنة لوجوده، والقانون الموجود يكون ضامنا للحصول على هذه الحقوق، وفي اطرف الآخر نجد مفهوم الواجب الذي يعني "الفعل الذي يلتزم الفرد على أدائه"<sup>49</sup>، وهذا يختلف كلية عن الفعل العاطفي المرتبط بالوجدان أو يكون له أساس مستمد من الخبرة الخارجية أو الباطنية.

إن نظرية كانط الأخلاقية تقوم على وجهتي نظر إنسانية وفلسفية، وهذا هو روح الممارسة البيواييتيقية التي تعامل الفرد من منطلق إنساني ضمن أطر فلسفية، لأن الواجب ضمن هذا الإطار سيتطور ليصبح واجب الطبيب نحو مرضاه، وواجب المجرب في البيولوجيا تجاه المرض.

### ج- برغسون ونموذج الأخلاق الجديد:

قد يبدو من الصعب الربط بين التقنية كشيء مادي يمثل امتدادًا للعضوية، بما أن صورتها الأصلية قد عجزت عن أداء وظيفتها، لذلك أصبحت تمثل وسيلة الإنسان للإرتفاع عن الأرض، وبين التصوف الذي يمثل في كنهه هيام للنفس بشيء متعالٍ وزهدا فيما دون ذلك من ظواهر المادة وملحقاتها، فأن يستدعي التصوف الزهد فذلك لا يتطرق إليه الشك، مع أن كلاهما سيظل وقفًا على عدد قليل من الناس،

<sup>48</sup> I.Kant, Métaphysique des moeurs, Doctrine du droit, intro § B, G-F, 1994.

<sup>49</sup> Ibid

لكن مع هذا فإن التصوف سيسعى إلى الإغتناء وتوسيع قاعدة مرديه بالإحسان وهو أمر لا يقل يقيناً عن سابقه، بما أن الإحسان هو وسيلته لجلب انتباه بشر يسعون إلى تحصيل العيش بكل ما يملكون من إمكانيات، فلا يمكن أن تسعفه وسائله التقليدية كاللطف والتخفيف من معانات المقهورين والمشردين والفقراء في الانتشار.

إن هم البشرية اليوم تحقيق معيشة أرقى ومستوى ما من الرفاهية، ولذلك وجدت ضالتها في التقنية، مع أن الغاية الأولى التي وضعت من أجلها التقنية حسب برغسون هي إكمال ما منحته لنا الطبيعة من أعضاء، فإذا كانت أعضاؤنا أدوات طبيعية، فإن أدواتنا بالتالي أعضاء اصطناعية، وبذلك استطاعت التقنية أن تمنح أجسامنا حظاً من الرحابة وسعة في الاستعمال، ومزيدياً من الضخامة والقوة، فكان هذا يمثل بالنسبة للبشرية أعظم نجاح حققته على حساب الطبيعة.

غير أن هذا الجسد الذي أفرط الإنسان في تضخيمه وتمدده لم تستطع الروح ملئه ولا الإمام بأطرافه المترامية، وضعفت سيطرتها عليه فلم يعد بإمكانها توجيهه، بما أن حجمها لم يتغير، وهذا ما يفسر الفجوة الكبيرة التي حدثت بين الجانب المادي والجانب الروحي لدى الغرب، لذلك ما يحتاجه الغرب اليوم هو طاقة كامنة أخلاقية تعيد ذلك التوازن المفقود، والذي يستطيع تضخيم الروح هو الرجوع إلى التصوف، وهذا ما يقصده برغسون بالقول: "إن التصوف يدعو إلى الأخذ بالتقنية، لأن الجسد حينما يتضخم يتطلب مزيداً من الروح والتقنية تقتضي التصوف".

## خلاصة:

لم تنطلق البيوايْتِيقا من فراغ، بل كانت لها خلفيات فلسفية قدمت لها أرضية انطلقت منها، هذه الفلسفات رسمت معالم الحق الذي يجب أن يتمتع به الإنسان كذات في جميع حالاتها سواء كان طفلا أو شابا أو شيخا، في حالة المرض والعجز، في حالة الموت والحياة، واضعين حدودا للوسيلة التقنية في تطبيقاتها الطبية والبيولوجية.

## المحاضرة السادسة: بين المقاربة الأخلاقية والممارسة العملية:

### أهداف المحاضرة:

- 1- التفريق بين البيوايتيقا كنظرية والبيوايتيقا كتطبيق.
- 2- معرفة علاقة البيوايتيقا بالتقنية.

### محاوِر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- رهانات البيوايتيقا.
- 3- البيوايتيقا والنظام التقني الجديد.
- 4- الحكم الأخلاقي والفعل التقني.
- 5- خلاصة.

### تمهيد:

هل يمكن للبيوايتيقا مغادرة أسوار الجامعة ومخابر البحث لتتخرط مع الأطباء في مجال اختصاصهم؟ وما موقع البيوايتيقا داخل منظومة البحث العلمي؟ هل تنتظر البحث العلمي وخاصة الطبي ليستمر في التقدم ثم تصدر حوله أحكامًا قيمية، مفرغة من طابعها الإيديولوجي؟ أم عليها أن تراقب هذه المخابر قبل شروع العلماء في أبحاثهم، وبذلك تحاكم مشاريعهم ونواياهم؟ لكن لتفعل ذلك، هل عليها أن تتحالف

مع قوة تمكنها من القيام بهذا الدور الضاغط، ونقصد بها القوى السياسية والعسكرية... التي هي في الأساس مصدر الرغبة في البحث والتطوير؟ وهل البيوايتيقا تراعي الحالات الشخصية وتدعو إلى إنقاذها أم أنها تهتم بمجالات "الصحة العامة" التي تعتبر قضايا اجتماعية لا يمكن إغفال انعكاساتها على الأفراد؟<sup>50</sup>

### 1- رهانات البيوايتيقا:

لم تعد رهانات البيوايتيقا اليوم منحصرة في ضبط مفاهيم ورسم حدود نظرية، بل أصبحت اليوم مدعوة أكثر من أي وقت مضى إلى الانخراط في الممارسات البيولوجية والطبية في مختلف أبعادها سواء الإيجابية أو السلبية، كما أن البيوايطيقي لا يمكنه لعب دور الرسول الذي يعطي تعاليمه الالزامية والمستمدة من سلطة عليا لا تخطئ، بل هو مدعو إلى التفكير مع الطبيب والمريض والمجتمع بكل أطيافه لضبط مفهوم الحياة، وما تتضمنه هذه الحياة من مفاهيم وقيم كالذاتية، الحرية، الشخص، الجسد، الحق، الكرامة، الصحة، المرض، الشفاء... وعليه أن يزيل الضبابية عن كل المفاهيم التي تتنازلت بشكل كبير في ظل التطور التكنولوجي المذهل، لأن التحكم في الحياة بمفاهيمها هو أكبر ثورة في تاريخ الإنسانية<sup>51</sup>.

<sup>50</sup> Guy Durand, Introduction générale a la bioéthique, Fides-Cerf, 1999, p146-149.

<sup>51</sup> Jonas Hans, Le Principe de la responsabilité, Ed cerf, Paris, 1995, p 331.

## 2- البيوايتيقا والنظام التقني الجديد:

إذا كانت البيوايتيقا تدخل ضمن إطار تحوّل أساسي لمجتمعاتنا المعاصرة، فإنه يصعب تصور مقوماتها ونهاياتها، لأنها تحتاج إلى مراجعة دورية لتساير ذلك التقدم المذهل الذي تشهده التقنيات الطبية والبيولوجية اليوم، وهذا ينكي الاعتقاد بأن مبادئ وأحكام البيوايتيقا ستحل تدريجيًا محل المبادئ الأخلاقية في صورتها الكلاسيكية، بما أنها تتغير وتتجدد بتجدد الغايات التي وجدت من أجلها، وهي مسايرة النظام التقني الذي يعرف كل يوم شيء جديد، فالبيوايتيقا لا تحقق نفسها بالاندماج السلبي داخل المنظومة الكلية التي أوجدتها الأنساق الأخلاقية الكلاسيكية، بل عليها أن تعيد صياغة هذا الواقع ضمن أحكام تتأقلم مع متغيراته، وعليها أن تساير عالم التقنية الجديد إذا رغبت أن تستمر في البقاء، لأن تاريخ ماضي الحضارات يشهد بأن التخلي والإقصاء يطال تلك المبادئ التي لا تتسم بالتطور.

كما أن البيوايتيقا يبقى عماد وجودها هو انخراطها في تلك العلاقة القائمة بين الكائن الحي البشري وبين التطور التقني، هذا التطور الذي يمثل شرط إمكان وجود الإنسان نفسه أنطولوجيًا، فالبيوايتيقا كأنها تريد أن تأخذ موقع حماية ذلك الطبيعي من التدمير الذي قد يطاله من الاصطناعي، لأن الإنسان له القدرة على إثبات نفسه من خلال عملية التموضع بلغة بول ريكور P.Ricoeur وهذه القدرة هي نفسها من

تهبه القدرة على التحايل على النظام الطبيعي<sup>52</sup>، وفي مثل هذا الإطار لا تكمن الأنسنة في تربيض الطبيعة من أجل السيطرة عليها، كما هو الأمر في حدود الرؤية التي يفضي إليها العلم الحديث، بل في الاحتفاظ فيها بما يبقياها في موقع الآخر الذي يمكننا أن نتواصل معه، باحترام حقه في الكينونة، أي أنها تكمن بوجه ما في أن نحافظ على العالم لا باعتباره موضوعاً غريباً يتوجب تغييره كلياً وفق مقتضيات الرغبة اللامتناهية، بل باعتباره ذاتاً أخرى نؤلف بمعيتها عالماً مشتركاً<sup>53</sup>.

كما على البيوايتيقا أن تعمل على تغيير نظرة اللامبالاة لأحكامها، والتي شهدتها الأخلاق الكلاسيكية، خاصة في الأوساط الثقافية والجامعية، التي لم تكن تعير أدنى اهتمام للأخلاق والآداب إلا بشكل ضئيل، باعتبار ارتباطها بالدين، فالظاهران رغم اختلافهما الظاهري، ليستا في الحقيقة إلا ظاهرة واحدة، وبما أن النخبة المتنفقة - خاصة في أمريكا- كانت تعتبر أن الدين أصبح ظاهرة متجاوزة، فقد كان من الطبيعي أن تعتبر الأخلاق التقليدية بدورها ظاهرة متجاوزة أو ملغاة<sup>54</sup>، وفرضية إلغاء الأحكام الأخلاقية كما هي معطاة في الضمير الجمعي من طرف النخبة، لا يجب أن نعثر عليها بصفة مباشرة أو نجد لها تسمية صريحة في نصوص الممتهين للعلم الحديث أو المعاصر بشكل مفرد، لكنها كانت تشتغل بصمت لدى أغلب العلماء والفلاسفة

<sup>52</sup> P.Riceour, Histoire et Vérité, édition Seuil, Paris, 1955, pp 222-224.

<sup>53</sup> محمد عادل مطيمط، من "فرضية إلغاء العالم" إلى هستيريا السلوك التقني الحديث: كيف أعد القرن السابع عشر لانهاية العلاقة بين الإنسان والطبيعة، ضمن كتاب جماعي أنسنة التكنولوجيا، تحت إشراف سالم لبيص، منشورات اللجنة الثقافية المحلية بجرجيس، ط1، 2006، تونس، ص 25.

<sup>54</sup> عمر بوقناس، البيوايتيقا الأخلاقيات الجديدة في مواجهة تجاوزات البيوتكنولوجيا، مرجع سابق، ص 53.

المابعد حدثيين، ويمكننا أن ندرك ذلك إذا تمعنا تطور المنهج العلمي في أبحاث الفيزيائيين من أمثال "غاليلي" أو "بيكمان" قبل أن تتحول بعد ذلك إلى فرضية فلسفية أساسية تنتزل في مقدمة المشروع النّسقي لهذا الفيلسوف أو ذاك، وهذا ما بشرت به الفلسفة النيتشوية، التي طالما نظرت إلى الأخلاق بأنها تحمل بذور فنائها، لأنها لم تقدم لنفسها أسباب استمرارها في الوجود، ولطالما كان تشبثها بالمقدس فإن طريق نهايتها قد قرب، يقول نيتشه ملمحًا إلى هذه النهاية في كتابه "العلم المرح" "رأى قديس رجلاً قاصدًا إياه وهو يحمل وليدًا، "ماذا عساي أن أفعل بهذا الطّفل، سأل هذا الأخير، فهو معدم ومخفق ولن يعيش كفاية ليموت". "أقتله"، صاح القديس بصوت عنيف "أقتله وخذه ثلاثة أيام وثلاثة ليال بين ذراعيك حتى تتذكر ذلك، بهذا لن تلدّ طفلًا أبدًا إذا لم يكن الوقت ملائمًا"، عندما سمع الرّجل هذه الكلمات رحل خائبًا ولام كثير من النّاس القديس بكونه نصح بالإقدام على فعل قاس كقتل الطّفل، "لكن أليس أكثر قساوة أن ندعه يعيش؟" قال القديس<sup>55</sup>.

قد يُنظر إلى الإلغاء الذي مارسه نيتشه على الأخلاق على أنه إلغاء ميتافيزيقي، لكن هذا الإلغاء كان له الأثر البالغ على كل مناحي الحياة، بما في ذلك تلك الممارسات التي تسعى إلى تجريب الجديد على كل شيء دون الخضوع لأي قيود تحدد لها مكانًا تتوقف عنده.

---

<sup>55</sup> فريدريك نيتشه، العلم المرح، ترجمة وتقديم حسان بورقية ومحمد ناجي، إفريقيا الشرق، المغرب، 1993، ص 73.

### 3-الحكم الأخلاقي والفعل التقني:

إن التقنية عند النير من الفلاسفة ليست شرًا في بداياتها، وإنما تحولت عن هذه الصفة لأن التفكير العلمي الذي لحقها شوه أهدافها " لأن التقنية في نشأتها ترتبط بالاستعمال، في حين يرتبط العلم في نشأته بالإدراك، والإدراك حالة ما قبل معرفية، والاستعمال مناهض للمعرفة، وعلى ذلك فالإدراك والاستعمال يشيران إلى اتجاهين متعارضين في تجربتنا العلمية، حيث يتجه أحدهما إلى خصوصية ممارسة معينة، أما الآخر فيتجه نحو تعميم حاجة معينة"، فالتقنية لا يمكن أن تتحمل ذلك الاتهام الذي وجه إليها من طرف الكثير، وفي كثير من الأحيان يكون صاحب أصعب الاتهام غير مختص، بل يمكن أن نقاضي العلم الذي يريد أن يوظفها لخدمة نظرياته، وفي موضوع كهذا لا يمكن أن يكون القاضي إلا فيلسوفًا.

هل يمكن أن يكون القاضي لاهوتيًا ينطلق في حكمه من سلطته الدينية؟ يجب كانغلهم " إن مثل هذا القاضي الذي على خلاف الفيلسوف، عندما يقبل على نفسه أن يكون قاضيًا، لن يعترف به جميع أطراف الخصام، لأن مسألة المجتمعات الحديثة التي تنطرح فيها مسألة العلاقات بين الإنسان والتقنية وتضطرب، هي مجتمعات افتقدت قدسيتها بسبب آثار العلوم والتقنيات تحديدًا، إنها مجتمعات انعتق فيها الأتباع والخدم من سلطة اللاهوت"<sup>56</sup>، فرجال الدين ليس من اختصاصهم أن يحكموا على صحة هذه الممارسات الطبية أم لا.

---

<sup>56</sup> G. Canguilhem : Activité technique et création , communications et discussions, société toulousaine de philosophie, 2ème série, séance du 26 février 1938, p83.

**خلاصة:** وفي الأخير يمكن القول بأن البيوايتيقا بحث حتمته التغيرات الجديدة في مجالات الحياة وما رافقها من مستجدات، ولذا فإن المفهوم الذي يمكن وضعه، يكون في الغالب مفهوما ظرفياً يحدد فقط المجال الذي تشتغل عليه هذه الأبحاث، وقد يتغير بتغير المبادئ التي ينطلق منها سواء كانت قانونية أو أخلاقية أو دينية أو فلسفية ..

كما أن المفاهيم المختلفة التي يمكن تقديمها لمصطلح البيوايتيقا تؤكد غنى مواضيعها وتشعب اختصاصاتها، وتبقى هذه المفاهيم التي أعطيناها للمصطلح مجرد مقاربات تقترب بها من المواضيع التي تخوض فيها البيوايتيقا دون غيرها، وعلينا دائما إدخال تعديلات على الضبط المقدم نساير به التطور الكبير الذي تعرفه هذه المواضيع.

## المحاضرة السابعة: البيوايتيقا ونموذج التفكير الجديد في الطب والبيولوجيا

### أهداف المحاضرة:

- 1- ربط البيوايتيقا بالنظريات المعاصرة.
- 2- حدود ومعالم الحكم البيوايتيقي بين التفسير الآلي والفهم الغائي.

### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- الكائن الحي بين التفسير الحيوي والتفسير الآلي.
- 3- الفلسفة الوضعية والبيولوجيا:
- 4- الكائن الحي بين التفسير الحيوي والتفسير الآلي.
- 5- الغائية المنفتحة.
- 6- خلاصة.

### تمهيد:

تعتبر إبيستيمولوجيا البيولوجيا من الابستيمولوجيات المحلية النشطة اليوم، خاصة بعد الاكتشافات الكبيرة والمبهرة في مجال فهم الكائن الحي، والإنساني خاصة، فشكل بامتداده البيولوجي موضوع هذه الابستيمولوجيا، ولم نعد نتحدث عنه ككائن مفكر أولاً كما عهدناه لدى الأنساق الفلسفية الكلاسيكية، بل قبل ذلك هو كائن حي ثم

يأتي العمل التقني كامتداد لوظيفته البيولوجية، وبعدها تأتي خاصية المعرفة كنشاط من أنشطة الحياة، غرضها تحقيق التأقلم، وهذا هو المشكل الأول لهذه الصيرورة والجدلية، التي شكلت الحضور الفعلي لنموذج الممارسة البيوايتميقية اليوم، فما هي أهم الإشكاليات التي تطرحها اليوم؟

## 1- الفلسفة الوضعية والبيولوجيا:

يعتبر تطور العلوم البيولوجية، المؤشر الواضح على إيقاظ دروب جديدة من البحث في مسالك الحياة، وهذا ما يفسر الارتقاء التلقائي لدارسي هذا العلم إلى مستوى كبير من التّظير، وهذا ما جعل أوغست كونت يتصور تاريخ البحث في علوم الحياة تاريخًا نقديًا، لهذا استعمل مصطلح البيولوجيا *Biologie* استعمالاً نسقيًا مكثفًا، خاصة في الدرس الأربعين من كتابه "دروس في الفلسفة الوضعية" *Coures de politique Positive*، وذلك للدلالة على أهمية هذا العلم في نسقه الفكري، هذا العلم الجديد/القديم، الذي طالما كان موضوعًا جالبًا للانتباه الفلاسفة قبل العلماء، مثل المجال الذي يبحث في قوانين الحياة، وجميع الأنشطة التي تمارسها، من أجل الاستمرار في الوجود، والمحافظة على عنصر أساسي وهو الحياة حسب كونت.

إن جدة وأصالة موقف أوغست كونت من علم البيولوجيا، يكمن في تصويره للوسط، حيث دعا إلى إقامة علم بذاته مهمته الأولى دراسة هذا المفهوم، وهو مفهوم انتقل إليه من البيولوجي الانجليزي لامارك، لكنه أعطى له بعدًا قابلاً للاستعمال في الوسط

الاجتماعي، مع أن المفهوم يرجع بالأساس إلى أرسطو، وقد شاع استعماله في القرنين السابع عشر والثامن عشر في الميكانيكا وفي فيزياء السوائل، إلا أن كونت أدخله ضمن مصطلحات البيولوجيا، حيث اعتبر بأن من واجبات البيولوجيا وضع نظرية في الأوساط، لأن الوسط هو المجال الذي تنشط فيه الكائنات الحية وتحقق فيه ذاتها<sup>57</sup>.

لقد أدرك كونت أهمية الوسط في جعل الأنواع قابلة للتنوع والتعدد، كما أن هناك أنواع قد تتكون بالتدرج، وإذا كان التصور الموجود للكائن العضوي، هو قابليته للتشوه تحت ضغط الوسط، فإن هذا فيه نفي للتلقائية في البيولوجيا، فلا شيء يمنع رجاء الوصول عند الاقتضاء إلى إحلال العضوي في الجامد، وهذا ما جعل كونت يُحرم من الوصول إلى خصوصية الكائن العضوي، لأنه عندما لام لامارك على كونه لم يقدر القدرة الانفعالية التلقائية التي تميز العضويات حق قدرها، وشجع في النهاية على البحث في المادة اللاعضوية عن الحياة، لم يكن كونت يشك في أن لامارك سيعتبر غير آلي بما فيه الكفاية فيما بعد من قبل البيولوجيين الداروينيين، والحقيقة التي بدت فيها النظريات الداروينية التي انعقدت بها النظرية الوراثية،

---

<sup>57</sup> G. Canguilhem, Etudes d'histoire et de philosophie des sciences, Librairie Philosophique j. Vrin, 6 édition augmentée, Paris, 1994, p 64.

نظريات مغالية في المثالية عند بعض البيولوجيين، الذين يهتمون بالمحافظة على إمكانية خضوع الكائنات الحية لتكييف الوسط.

## 2- الكائن الحي بين التفسير الحيوي والتفسير الآلي:

### أولاً: الآلية في تفسير الحياة:

إن الرؤية الآلية للعالم بشكلها الحالي، قد أنتجت في خطوطها العريضة ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، نتيجة التغيرات الثورية الحاصلة في مختلف العلوم الطبيعية خاصة الفيزياء وعلم الفلك، وبحلول عصر ديكارت ونجاح الثورة العلمية، كانت الحيوانات ومعها الجبال، والأنهار، والأشجار، قد فقدت أهليتها لامتلاك روح، وعن طريق قصر وجود الروح على البشر، واعتبار الحيوانات والنباتات مجرد آلات، تتحرك وفق آلية الفعل وردة الفعل، انطلاقاً من ديناميكا حرارية تحرك أعضائها، انطلق هذا الاعتقاد في تفسير كل حركة تحدث في عالم الحياة، وقد جعل هذا الاعتقاد المشتغلين بالبيولوجيا يحاولون تفسير وظائف الجسم وتكوينه، من خلال الانطلاق من هيكل ووظيفة الآلة القائمة، والتي تؤدي نفس الوظائف، لأن مبدأ الحركة الذي يحكمهما واحد، كما أن قوانين الطبيعة تسري عليهما معاً، ويتفق أنصار الاتجاه الآلي على أربعة نقاط تحكم دراسة الكائنات الحية وهي:

1- ليست هناك فروق تركيبية بين العضوية والآلية.

2-القوانين الفيزيائيةتحكم جميع الحركات الصادرة عن العضوية وعن الآلة.

3-الميكانيكا تشمل ضمن مباحثها الفيزيولوجيا.

4-الطب ينشأ من نظريات الفيزيولوجيا الميكانيكية.

ومن بين هؤلاء ديكارت، الذي قدم لنا قراءة مغايرة لما عهدناه عند المفكرين في طبيعة النفس، وعلاقتها بالجسد، فقد اختلفت طريقة تصورها عنده، فالنفس عند ديكارت ليست أميراً يأمر أو قائد جند يوجه التعليمات من فوق إلى الجنود والسواري، قصد التحرك أو التراجع، ولا هي بالحاكم صاحب الأمر المطلق، أين لا يخرج عن سلطانه أي شخص، بل العلاقة منحصرة في مبدأ السببية، هذا المبدأ هو الذي يجعل الأعضاء تتحرك لأن سبب الحصول على ذلك الشيء يتم بفضل حركة محددة، فتتحرك الأعضاء المسئولة عن تحقيق هذا الهدف، لأن الحركة السببية تحدث انطلاقاً من معطيات محددة، وليست للنفس سلطان مباشر على العضو فتجعله يتحرك أو يسكن، لأن مهمة النفس عند ديكارت التفكير وليس لها أي مهمة بيولوجية.

أما العلاقات التي تقوم بين مختلف أعضاء الجسم، يمكن حصرها في التأثير المتبادل بين تلك الأعضاء، والقائم على الاحتكاك والشد والدفع، لتجعل الجسد يبدو كأنه كتلة واحدة تتحرك، "فتنطلق الأنفاس من المخ عبر الأعصاب في كل العضلات، لتهيئها للاستخدام الخارجي، والتي بدورها تجعل الأعضاء تنقبض وترتخي، لتمنح الحركة إلى كل الأطراف"، إن حركات الجسم تتحكم فيها تلك

الأعصاب أو كما عبر عنها ديكارت بالأرواح، التي تتقل كل الأوامر إلى الجسد، حينها يبدو في تناسق وتكامل عند قيامه بالفعل.

إن الطبيعة تبقى عند أصحاب التصور الآلي شيء واحد، لأنها ترد كلها إلى عنصر واحد متمثل "قوة واحدة وذات واحدة" بلغة بوفون *buffon*، حيث يكون تركيبها مع ذاتها منتجة للهيئات والاختلافات، مما يجعل آثارها متنوعة تنوعاً لا نهائياً، فحياة الإنسان أو الحيوان أو حتى النبات هي نتيجة وليست مبدأ، وهي بذلك نتاج تطور وتفاعل وليست جوهر، فالجسم هنا حسب هذا التصور آلة حركتها ناتجة عن تجميع مجموعة من العناصر.

بهذه التدعيمات العلمية والتقويمات القانونية، أصبح من الصعب الطعن في صحة النظرية الآلية، ذلك أن الآلة نتاج حساب إنساني دقيق ونظريات بالغة التعقيد، ومن خلال تجسيد هذه النظريات على أرض الواقع تتشكل الآلة، ويكون هيكلها مكتملاً لأنه يؤدي الوظيفة المنوطة به، لذلك علينا فهم طبيعة الكائن الحي من خلال الرجوع إلى عمل الآلة، بهذا تكون الآلة حسب التصور الآلي هي تشكيل المادة ثم العمل على بث الحركة فيها، "وهذه الحركة لا تنفي وجود التشكيل، فهي تجميع أجزاء قابلة لتشكيل جديد، مع إعادة العلاقات نفسها بين الأجزاء، وهذا التجميع الذي يضم الأجزاء يحتوي على درجة كبيرة من الحرية".

لكن هل التصور الآلي في تفسير حركة الكائنات الحية مقبول اليوم؟

### 3- تهافت الآلية:

الكثير من الفلاسفة والبيولوجيين رفضوا التفسير الآلي للحياة، خاصة الآلية الديكارتية، متسائلين: هل الحركات المتعاقبة التي تقوم بها الآلة بشكل ديناميكي، نستطيع أن نسميها سلوكًا؟ ليجيب كانغيلام عن هذا: لا يمكن أن نسمي هذه الحركات المتعاقبة سلوكًا، فلا وجود لفعل تشكل في الوسط الذي هو فيه، بل كلها عبارة عن عملية ردود أفعال، تشكلت بصفة مطلقة داخلها، فالحركة بهذا المعنى تأتيها من الخارج، لذلك لا يجب تسمية هذا التابع الديناميكي سلوكًا، أو طريقة في التأقلم عند كانغيلام.

لقد اتخذ كانغيلام هذه النقطة كمنطلق، من أجل تحليل الحركة التي تقوم بها الآلة، متسائلًا: ماهي الطريقة التي نستطيع من خلالها تفسير وظائف الحي انطلاقًا من حركات ديناميكية تقوم بها الآلة؟

يعتبر كانغيلام أنه من العسير فهم لماذا احتفظت فكرة ميكنة الكائنات الحية، بمثل هذا الذبوع الطويل الأمد، إذ لم يحدث قط أن قامت آلة ببناء نفسها أو استنساخ نفسها أو برمجة نفسها، أو كان في مقدورها توليد طاقة ذاتية، فالتشابه عنده بين الكائن المتعضي والآلة هو تشابه سطحي للغاية، ومع ذلك فإن فكرة الميكنة لم تتراجع إلا بعد دخول هذا القرن بوقت ليس بالقصير.

## ثانياً: التفسير الحيوي للكائن الحي:

لقد رافق التفسير الحيوي مفهوم الكائن الحي منذ بداية تأمل الإنسان لهذه الكائنات، وبما أنه كان في المرحلة الأولى من تفكيره يربط كل الظواهر بكائنات مفارقة ذات طابع ميتافيزيقي، فقد قام بتفسير طبيعة هذا الكائن انطلاقاً من هذا الفهم، ويعد أفلاطون من الذين دعموا هذا التفسير وأخذوا به، بل إن كل رجالات القرون الوسطى في حدود كبيرة، وكذا رجالات النهضة حسب كانغيلام، كانوا يعتبرون بأن الكون الذي نعيش فيه، عبارة عن جسم كبير، متناسق، ومنظم، حسب القوانين والغايات التي تحقق له استمراره وتحفظ له بقاءه، والإنسان في هذا الكون الفسيح عبارة عن خلية صغيرة تحقق غاية تتجاوزها، وبين هذه الخلايا هناك نوع من التعاطف الداخلي Sympathies interne، بحيث يرتبط مصير كل واحد بالجزء الذي ينتمي إليه، وبالتالي يرتبط بمصير الكون ككل، لأن هناك رابطة خفية تجمع كل الكائنات. كما أن هذا المذهب يعتبر بأن الشفاء من الأمراض مستمد من الطبيعة، وهذا ما جعل كانغيلام لا يفرق بين المذهب الطبيعي والمذهب الحيوي، بل إن "المذهب الطبيعي والمذهب الحيوي لا ينفصلان Vitalisme et naturalisme sont indissociables، لأنهما يعتبران الحيوية بمثابة ميل طبيعي في الإنسان"، وذلك من أجل الحد من سيطرة التقنية على مختلف مناحي الحياة البشرية، لأن الإنسان يميل إلى الثقة في الحياة، وقد ينفر أحياناً مما يعكرها أو يجعلها مهددة، لكن المفارقة

التي ربما يعيشها الإنسان المعاصر اليوم، جعلته لا يعرف أين يمكن أن يتجه في طلب الحياة، ويلخصها كانغيلام بقوله: "إن الإنسان هو الكائن الحي المفصول عن الحياة عن طريق العلوم، لكن يريد أن يلحق بالحياة عن طريق العلم"، لقد طورت العلوم إنتاجات تقنية، جعلت الإنسان يبتعد عن طبيعته الأولى، ولكن يريد الرجوع إليها بالبحث في علوم الحياة، من أجل توفير شروط ملائمة تحافظ عليها.

إن الإنسان عند أصحاب الاتجاه الحيوي ابن الطبيعة، يشعر تجاهها بالانتماء والتبعية، يرى نفسه في الطبيعة ويرى الطبيعة فيه، وكل الأشياء التي تحيط به تسكنها روح منه، وأعضاؤه لها امتداد إلى ما لا نهاية في هذا الكون الفسيح، الذي تتداخل فيه المشاعر وتتغام فيه الأفكار، فيشعر بالراحة والطمأنينة عندما يرجع إلى حضنها في حالة القلق، الفزع أو المرض، فتستقبله من جديد وكأنها الأم الرؤوم، التي تعطف على صغيرها، فيشعر تجاهها العالم الحيوي بالتبعية والانصياع، فلا يبدو له بأن ما يحدث في الطبيعة غريباً عنه، بل يعتبرها ظواهر حاملة لمعنى الحياة في صورتها البريئة، والبعيدة عن كل زيف وخداع، تستوي نفسه باستوائها، وتتعكر عندما يتعكر جوها، فما هو إلا مرآة عاكسة لتلك الظواهر الكونية، التي يجد فيها الحياة والمعنى.

لقد أخذ بهذا التفسير الكثير من العلماء المشتغلين في البيولوجيا حتى أواخر القرن الثامن عشر، ومن بين هؤلاء بلومباخ J.F.Blumenbach (1752-1840م)، الذي

كتب في طبيعة الخلق والانقراض والتكوين التلقائي، كان يعتبر هذه المادة الحيوية رغم خفائها، شيئاً حقيقياً جديراً بالدراسة العلمية شأنه في ذلك شأن الجاذبية، وفي نهاية الأمر تزحزحت فكرة الهيولة لتحل محلها فكرة "القوة الحيوية" كتفسير لا بديل له، حيث كانت مظاهر الحياة مستعصية على التفسير بغير هذه الفكرة، وهو تفسير لقي القبول من عالم له شهرة كبيرة مثل يوحنا مولر J.Muller.

في القرن الحالي فإن من الذين تردد اسمهم دائما عند الحديث عن المذهب الحيوي، كانغيلام، حيث كان يقول: "إن العودة إلى الحيوية هي بمثابة العودة إلى الحياة"، وكانغيلام من الفلاسفة القلائل الذين أدركوا أهمية الحيوية في تاريخ العلوم البيوطبية Les sciences biomédicales، ولذلك عمد على استحضارها في أعماله الأولى بدءاً من سنوات (1946-1947م)، رغم ما في هذه المحاولات من مخاطرة، خاصة في تلك الفترة التي كان فيها مصطلح الحيوية غير معرّف Ignoré لدى الكثير من الفلاسفة، ومؤرخي العلوم البيولوجية، هذا المصطلح الذي طالما استعمل وفق حمولة سلبية، لأنه وبكل بساطة يعارض ذلك التصور الذي تريد العلوم الفيزيائية والكيميائية تقديمه عن البيولوجيا والطب

لقد عادت الحيوية مع كل هؤلاء حسب أرنست ماير E.Mayer بنوع من القوة، واعتترف لها بقدرتها على نقد براديجم الاتجاه الآلي، لكن في كثير من الأحيان يظهر

عدم التجانس الإشكالي في النظريات الحيوية المشوهة البناء، لهذا نجد العلماء يبحثون عن البديل الذي يستندون إليه في مواصلة البحث.

## 1- الحيوية المنفتحة:

إن الحيوية التي يريدها كانغيلام، هي تلك الحيوية التي لا ترفض كلية كل التفسيرات الآلية ولا تستبعد منها مجال تفكيرها، حتى لا تقع في خطأ التنزيه والهروب إلى الميتافيزيقا، وإنما تضع لها حدود وضوابط، من خلالها تحافظ على خصوصية الكائن الحي، وفي نفس الوقت بإمكاننا دراسته دراسة علمية، "لأن الحيوية تبحث عن وضع الآلية في مكانها المناسب".

من حقنا هنا أن نتساءل: لماذا التفت كانغيلام إلى هذا النوع من المفاهيم التي تعتبر مهجورة في عصره وكان الكثير يعتبرها من المصطلحات القديمة *Vieux concept* أمام النجاحات التي تحققت العلوم المادية كل يوم؟

تأتي إجابة كانغيلام بكل بساطة: "إنها العودة إلى منابع المرحلة التي نحبها"، برغم بساطتها إلا أنها تحمل نوعاً من العواطف، التي تحن إلى تلك المرحلة، أين كانت مصطلحات العلم تنبض بالحياة، والطبيعة تعامل بطريقة مباشرة دون أن تدخل عليها التقنية وتمكن ظواهرها، لذا يعتبر كانغيلام الاتجاه الحيوي بمثابة الخزان الذي نستقي منه مفاهيم الحياة، إنه دائماً حاضر في قلب تفكيره البيوطبي، فالمذهب الحيوي ظل محتفظاً بقوته خلال الأربعين سنة الأولى من القرن التاسع عشر

(1800-1840م)، كما تدل على ذلك كتابات هنتر J.Hunter (1729-1793م)، وبريكاردو J.C.Prichard (1786-1848م) وغيرهما ... في إنجلترا، وألمانيا، أما فرنسا حيث كان التيار الديكارتي مسيطراً بوجه خاص على رؤيتنا للكائن الحي، لم تكن مفاجأة أن تتسم الحركة المضادة التي قام بها الحياتيون على الدرجة نفسها من العنف، وكان أبرز من عانى من هذا العنف مدرسة مونبلييه، التي ضمت مجموعة من الأطباء وعلماء وظائف الأعضاء، ممن اعتنقوا هذا المذهب في تفسير الظواهر الحياتية، كما لا يمكن تجاوز الطبيب وعالم البيولوجيا بيشه، وحتى كلود برنارد، الذي اعتبر نفسه معارضاً للحوية، لكن في الواقع كان مؤيداً لبعض أفكار هذا المذهب.

### خلاصة:

تبقى الحوية عند الكثير من الفلاسفة طريقة في العيش وأخلاق أكثر منها مذهب، وهذا ما أشار إليه الطبيب الألماني رادل Radl (1774-1852م)، فالإنسان مثل الطفل الصغير في هذه الطبيعة، يبقى بحاجة إلى حمايتها بشكل دائم، فهو يشعر بأنه عضو منها وتابع لها، وهذا الشعور يجعله يرى الطبيعة داخله ويرى في الطبيعة ذاته، ولا يشعر أمامها بالاغتراب كما يشعر أمام التقنية ومنتجاتها.

## المحاضرة الثامنة: البيوايتيقا وعلاقتها ببعض العلوم الإنسانية

### أهداف المحاضرة:

- 1- نسج علاقات معرفية بين البيوايتيقا وبعض الحقول في العلوم الإنسانية.
- 2- توسيع نظرة الطالب للأمور في إطار كلي.

### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- البيوايتيقا وعلم الاجتماع.
- 3- البيوايتيقا وعلم النفس.
- 4- البيوايتيقا والسياسة.
- 5- البيوايتيقا والقانون.
- 6- خلاصة.

### تمهيد:

تتداخل البيوايتيقا مع الكثير من العلوم الإنسانية بمختلف فروعها باعتبار أن البيوايتيقا نمط جديد من التفكير الذي يمزج بين القيم والعلم في جوانب عدة وأهمها الطب والبيولوجيا، فكأنها حلقة وصل بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية بدورها تسعى إلى تحقيق العلمية بما توفره لنفسها من مناهج، ساعية إلى تفكيك الكائن الإنساني في مختلف أبعاده، وهذا ما يجعل التعاون بين البيوايتيقا والعلوم

الإنسانية يظهر بشكل جلي في الكثير من المجالات، فما هي أهم النقاط التي يتداخل فيها هذين الفرعين؟

## 1- البيوايثيقا وعلم الاجتماع:

هناك تداخل كبير بين ما يقره المجتمع من سلوكيات مقبولة أو مرفوضة وبين الأحكام البيوايثيقية، فما يعيشه المجتمع من عادات وتقاليد وأحكام متعارف عليها تؤثر في صياغة الأحكام البيوايثيقية المختلفة، لأن الفرد ينتمي إلى نسيج إجتماعي يتداخل معه في عدة علاقات، كما أن هذا الجسد ليس ملكه وحده يفعل به ما يشاء، بل هناك موقف للأسرة وللسلطة في صياغة هذه الأحكام.

ومن هنا تدخل علاقة الذات بالمحيط الاجتماعي الموجودة فيه، مما جعل بعض الأمراض ترتبط بتاريخ البشرية، بل دُرس بعضها كظواهر اجتماعية<sup>58</sup>، أين أصبحت تتعدت انتهاء الفترات التاريخية بانتهاء الأوبئة، وفي هذا يقول كانغيلام: "مع نهاية القرن التاسع عشر، حددت الكثير من مسببات المرض، بوسائل تقنية دقيقة، فاكتشف الميكروب microbes والعصية bacilles والفيروس virus، كما انتبه العلماء إلى طريقة تنقلها، فالطاعون كان سبب نقله الجرذان، والبعوض كان سببا لنقل داء الحمى

---

<sup>58</sup>ويمكن أن نشير هنا إلى تلك الدراسات التي قدمها ميشال فوكو عن بعض الأمراض، التي ارتبطت بمرحلة ابستيمية معينة من تطور المجتمع كمرض الجنون والخبل والشذوذ....

الصفراء *fièvre jaune*... كما أن تاريخ هذه الأمراض لا يمكن عزله كذلك عن الجغرافية التي كانت تنتشر فيه<sup>59</sup>.

كما أن تأثير الأبحاث الطبية والبيولوجية على هذا الجسد ترمي بظلالها على الرأي العام في المجتمع، فهناك من يؤيد ويدعو إلى تعميم هذه التجارب وهناك من يعارض ويدعو إلى حضرها، وبذلك تتداخل الأحكام أو القيم البيواييتيقية مع المجتمع بمختلف أطيافه.

## 2- البيواييتيقا وعلم النفس:

إن الكثير من التجارب الطبية والبيولوجية تتطلب الموافقة النفسية مترافقة مع الأحكام الإيتيقية، فالشخص الذي يتعرض إلى حادث مرور مثلا، ويفقد عضواً من أعضائه ثم يجري عملية زرع لهذا العضو، رغم قبول الفكرة أو العملية إيتيقياً إلا أن هذا الفرد يحتاج إلى مرافقة نفسية تساعده على تتقبل مكونات الذات الجديدة، لذا يوضع تحت رقابة نفسية من طرف أطباء مختصين، لهذا قد نجد الكثير من الأشخاص الذين أجروا هذه العمليات يدخلون في فترة صعبة ومزاج متقلب تصاحبها اضطرابات حادة قد يفقد فيها الفرد السيطرة على سلوكه، أين يشعر بالنقص تجاه بعض المواقف التي تذكره بأنه يعاني من نقص ذلك العضو.

---

<sup>59</sup>G.Canguilhem, *Le normale et le pathologique*, op-cit, p 38.

كما أن الفرد الذي يزرع في رحم امرأة غريبة عنه أو يستتبت في مزارع خاصة يحتاج إلى برمجة نفسية وإعادة إدماج في إطار برنامج مدروس يونس سريرا في كثير من الأحيان كي لا يحبط الفرد من حياته إذا ما صدم يوما ما بالحقيقة، وهناك حالات قد تتدخل فيها الألة بشكل كبير في تكوين العضوية مما يخلق ما يسمى بالإنسان الآلي أو السايبورغ الذي يحتاج إلى مرافقة خاصة لضبط سلوكه، ومعرفة ردود أفعاله أمام مختلف المواقف التي يتعرض لها، وقد جسدت السنما الأمريكية الكثير من الأفكار بهذا الاتجاه.

### 3- علاقة البيوايتيقا بالسياسة:

إن العلاقة التي تنسجها البيوايتيقا مع السياسة تكاد تكون أهم العلاقات التي تقيمها البيوايتيقا مع شبكة المفاهيم المختلفة، وهذا لأن السياسة ترافقها السلطة أو القوة التي تنفذ أحكامها إذا أرادت أن تمرر موضوعًا ما، وهذا الأمر ضارب في تاريخ الفكر الإنساني، أين تكون الأفكار ذات الحكم القيمي والمدعمة بسلطة سياسية نافذة، لأن هذه الأفكار التي تبلور في مخابر تحتاج إلى تمويل ودعم من قبل سلطة لها القدرة على توفير هذه الإمكانيات، ولو رجعنا إلى تاريخ الفكر اليوناني وبالتحديد إلى كتاب الجمهورية لأفلاطون لوجدنا ذلك المثال عن استبعاد الضعفاء والعاجزين على أن يكونوا ضمن مواطني الجمهورية، كما نجد ذلك ما فعله النظام السياسي النازي

في ألمانيا الذي دعم تلك الأبحاث التي كان غرضها عسكري على حساب الحقوق التي يتمتع بها الإنسان.

#### 4- علاقة البيوايْتِيقا بالقانون:

تختلف علاقة البيوايْتِيقا بالقانون باختلاف البلد الذي يصيغ تلك القوانين، فهناك بعض البلدان تسمح بممارسات طبية ترفضها بلدان أخرى، ومع هذا رغم هذه الاختلافات إلا أن هناك ضوابط قانونية تحكم هذه الممارسات الطبية الحديثة، خاصة مع اكتشافات العلاجات الجينية والصناعات البيولوجية، كالإقرار بمبدأ استقلالية الفرد والحفاظ على كرامته، ومراعات النظام العام، والآداب في نقل الأعضاء، مثل حضر عمليات المتاجرة بالأعضاء البشرية، وكذا مراعاة الضوابط الخاصة بالعلاقات الجينية التي تربط المانح بالمستفيد، من خلال ضرورة فحص نظام HLA في حالة نقل وزرع الأنسجة<sup>60</sup>.

لكن هناك تجارب وقف ضدها كل رجال القانون لأنها تهدد الوجود البشري، لهذا وضعت نصوص وقوانين تمنع هذه التجارب، فمثلا التلاعب بالشفرة الوراثية للإنسان، هذا التلاعب الذي يدخل تحسينات أو يضيف خصائص غريبة على الكائن البشري تجعل من هذه المورثات تعمل على تخليق كائن آخر مختلف كلية عن الكائن البشري العادي، هذا التعدي على خصوصية هذه المورثات تقلب

---

<sup>60</sup> فايز عبد الله السكندري، مشروعية الاستنساخ الجيني البشري من الوجهة القانونية، مجلة الحقوق، العدد 2، الكويت، 1998، ص 785.

كينونة الكائن البشري وتهدد وجوده، وهذا ما تمثل آلية الاستنساخ تطبيقاً له، لذا يرى رجال القانون بأن الاستنساخ قد يطرح إشكاليات جمة بالنسبة للشخص المستنسخ، لأن وجود معاملات متماثلة يصعب التفريق بينها، ومنه في حالة ارتكاب إحدى هذه النسخ لجريمة ما، فإنه يصعب تحديد النسخة التي تتحمل المسؤولية، كما يجعل هذه النسخ تتعرض إلى أزمات نفسية مختلفة<sup>61</sup>.

ومن أهم الدول التي وضعت قوانين ضابطة لهذه الممارسات، نجد إيطاليا حيث نصت المادة الخامسة من القانون المدني على أنه لا يسمح للشخص أن يتصرف في جسمه تصرفاً يؤدي إلى نقص دائم في كيانه الجسدي أو يكون مخالفاً للقانون أو النظام العام أو الآداب<sup>62</sup>.

أما القانون المدني الفرنسي الذي يؤيده الكثير من المفكرين ومن بينهم الفيلسوف فرانسوا داغوني، فقد رفض بيع الأعضاء البشرية أو الاتجار بها حتى وإن كانت بموافقة الفرد المتبرع، لأن الفرد لا يمكنه أن يتصرف في جسده بطريقة تجارية، وهذا حفاظاً على كرامة الإنسان مهما كان جنسه أو أصله.

إن الأمر لا ينطبق على كل الدول رغم اشتراكها في وضع الكثير من التجارب في الخانة الحمراء، إلا أن هناك حالات تختلف فيها هذه الدول أو حتى الأفراد

<sup>61</sup>محمد صادق صبور، الاستنساخ هل يمكن تنسيل البشر؟ دار الأمين، ط 2، مصر العربية، القاهرة، 2001، ص 118.

<sup>62</sup>هيثم حامد المصاروة، التنظيم القانوني لعمليات زرع الأعضاء البشرية، دار المنهاج، عمان، د.ب، 2000، ص 86.

والعائلات فيما بينها فهناك من يقبل مثلا الموت الرحيم ويدعو إلى تقنينه وجعله حق من حقوق المواطن وهناك من يرفضه ويعتبره جريمة. لذلك لابد أن يكون هناك قانون يضع الحدود ليلغي التّجاوزات اللاأخلاقية ويراقبها، وهذا أفضل من الوضع الرّاهن الذي يمنع كل شيء ولا يراقب أي شيء، والتشريع يعني سن القوانين تبيح بعض التجارب في إطار شروط مضبوطة، يمكن مراقبتها، فنحن نفترض أنه غير موجود مادام ممنوعاً، وهذا ما يزيد الأمر سوءً حيث تكثر التجاوزات التي لا يتفطن لها القانون وحتى إن تفطن لها يصمت ولا يكثر لها، كي لا يجعل الإعلام ينشرها للرأي العام، فالكثير من الفئات تحتاج إلى حضور القانون خاصة تلك الفئات الضعيفة التي أنهكها المرض، حيث يقول جاك بوييه: "يحتاج المرضى والشيوخ والسّقاء والمحتضرون أكثر من كل الكائنات الإنسانية إلى قانون يقر حقوقهم ويحميها"<sup>63</sup>.

إن القانون هو الوثيقة التي يحتكم إليها المريض والطبيب عندما يكون هناك نزاع، وبذلك لا تحكم إيتيقا الطب الطبيب وحده، ولا البيولوجيين والاجتماعيين ولا القضاة، بل هي فعل كل المواطنين فقد يصطدم كل مريض بآلامه وبوحدته بعد أن يلفظه الجميع، لذلك من الخطأ أن نحمل مسؤولية لا إنسانية آخر الحياة للأطباء وحدهم، بل إن المجتمع كله مسؤول والعائلة بصفة خاصة لإهمالها

---

<sup>63</sup> Jacques pohier, La mort opportune, éd Du Seuil, 1998 , P 318 .

المرضى، حيث لم تعد تهتم بهم وانعدمت مرافقة المرضى المحتضرين بعد أن غاب الوازع الديني وغابت معه قدسية الحياة والموت.

### خلاصة:

من هنا يمكن القول بأن التداخل الموجود بين العلوم الإنسانية بمختلف فروعها وبين البيوايتيقا تطرحه بشكل مكثف هذه الإشكاليات التي تحضر على الدوام في المستشفيات، وهذا ما يفسر عودة البيوايتيقا إلى العلوم الإنسانية، ففشل العلوم الطبيعية في احاطة بكل ما يتعلق بالمرض وتبعاته جعلها تستتجد بمناهج علوم الإنسان، فالإنسان كائن معنى والمعنى هو ما يمنع أفعالنا من التأبّد والتسلط وانتفاء المعنى يعني السقوط في الشئئية.

## المحاضرة التاسعة: البيوايتيقا والفلسفة

### - أهداف المحاضرة:

- 1- التجذير التاريخي للعلاقة بين المفاهيم.
- 2- تتبع ذلك الخيط الناظم الذي يربط الفلسفة بالبيوايتيقا.

### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- الفلسفة والبيوايتيقا منطلق الانشغال.
- 3- القيم الأخلاقية كنقطة تقاطع.
- 4- خلاصة.

### تمهيد:

إن الكثير من القيم المبنية على صورة الإنسان التقليدية تتغير، ليتغير معها الكثير من المفاهيم الفلسفية المرتبطة بها، وفي خضم هذا التغير المتسارع نتساءل عن حقيقة الإنسانية المأزومة اليوم، التي تتشارك في مناقشة مشاكلها كل من البيوايتيقا والفلسفة.

ومن هنا نتساءل في محاضرتنا هذه: هل هناك مكان للتأمل الفلسفي في هذه الأزمة أمام التطور التكنولوجي الهائل؟ وهل بإمكان العدة الأخلاقية التي يملكها الإنسان المعاصر أن تساعد في توجيه هذا التغول الذي شهدته التكنولوجيا؟ وما هو

البديل الذي نستطيع من خلاله فهم أنفسنا، وفهم العوالم التي حولنا دون الوقوع في فخ المشاكلة التي تذوب معها خصوصية الإنسان الفردية؟ وما علاقة الفلسفة بالفكر البيوايتيقي اليوم؟

### أولاً: الفلسفة والبيوايتيكا منطلق الانشغال:

لقد كانت الفلسفة ولازالت تعتقد في نفسها المالكة للقدرة على تأصيل رؤية كلية للطبيعة وللإنسان، بما أنها تصلح إطاراً نأمل أن تتوافق فيه الحياة الفردية مع الحياة الجماعية<sup>64</sup>، هذا ما حرص على تأكيده هابرماس في كتابه "مستقبل الطبيعة البشرية"، وقد تغدو الفلسفة مجالاً يحقق فيه الإنسان توافقاً بينه وبين الطبيعة، أين يتكامل في فضاءها المجال القيمي مع المجال العلمي، إنشاءً لعقد طبيعي جديد يحيي فينا قيمة الإنساني، الذي ينظر إلى ظواهر الطبيعة كرفيقة لحياته وليست خادمة ولا نداً له<sup>65</sup>.

### خلاصة:

لقد تغير مفهوم الأخلاق الموجهة للإنسان ذو البعد الأحادي، بين النظرة الفلسفية والنظرة البيوايتيكية، فقد كانت الفلسفة تنعت بالشمولية، أصبحنا نبحث عن إيتيكا تغطي جميع أبعاد الإنسان أي شاملة، وترافق تمدده، سواء على المستوى الفردي من

<sup>64</sup> Habermas, L'avenir de la nature humaine, ed Galimard, Paris, 2002, p 10.

<sup>65</sup> اعتبر الكثير من المفكرين والفلاسفة وعلى رأسهم ديكرت وبيكون أن الإنسان سيذا للطبيعة، بما يملكه من قدرات خاصة العقل.

خلال التحكم في جسده، وكذلك على المستوى الجماعي، خاصة بعد تداخل عمل مؤسسات المجتمع في صياغة نموذج الإنسان المعاصر، كالمؤسسات التجارية والاستثمارية والإعلامية والسياسية والإستشفائية...

## المحاضرة العاشرة: الفلسفة والبيوايتيقا -تابع-

### - أهداف المحاضرة:

- 1- التعمق في الفرق بين الحكم الفلسفي والحكم البيوايتيقي.
- 2- امتلاك الطالب ملكة المقارنة والحكم بين المنطق الفلسفي والمنطق البيوايتيقي.

### - عناصر المحاضرة:

#### 1- تمهيد.

- 3- المستقبل التقني والنظرة الفلسفية والبيوايتيقية.
- 4- تبادل للأدوار بين الفلسفة والبيوايتيقا.
- 5- تراجع الفكر الفلسفي لصالح البيوايتيقا.
- 6- خلاصة.

### تمهيد:

إذا كانت الأخلاق الكلاسيكية تستقي مبادئها من الاتجاهات الفلسفية المختلفة، وقد كانت توصف بالدوغمائية ، فإننا نشهد اليوم تجاوزها للكثير من الفتوحات الغير متوقعة في مجال العلم، لذلك على العقل أن يتخلص من دوغماتيه التي تشربها لقرون من تيارات كلاسيكية، طالما اعتبرت الخير والشر شيان متقابلان يمكن

وضعهما على طرفي المعادلة الأخلاقية إذا اتصفنا بالفضيلة، فالقول بأخلاق ثابتة في تمييزها للخير والشر هو قول بثبات الإنسان الذي وضع هذه القيم وعليه تنطبق، ولكن الواقع المعاش يكشف التطور الكبير الذي عرفته أوضاع الإنسان، هذه الأوضاع جعلت من الأخلاق في صورتها الكلاسيكية تدخل الإنعاش إن لم نقل بأنها لفظت أنفاسها أمام اليومي والمعيش، الذي تتناسل فيه القضايا المستجدة تبعاً، وكأنها تطرح على كائن جديد، يختلف بمواصفاته عن الكائن الإنساني الكلاسيكي الذي ضبط مفهومه في التفكير.

### 1- المستقبل التقني والنظرة الفلسفية والبيوايتقية:

نشأت التكنولوجيا نتيجة تقاطع بين الفعل التقني والتفكير العلمي<sup>66</sup>، ولو أن المفكر الألماني شبنغلر O.Spengler (1889-1936م) يعترف بأن منشأ التقنية غير معروف، ولذا يميز بين التقنية لدى الحيوان، الذي يعمل بواسطتها على حفظ بقاءه واستمراره، بما أنه موجه بقوة غريزية تدعم استعماله لها، بينما التقنية عند الإنسان تكون عبارة عن خطة للحياة، تهدف إلى تجاوز المشكلات المطروحة أمامه بالتأمل في الحلول، وهي سيرورة إنسانية لم يوجد شعب خلا منها تقريباً<sup>67</sup>، سواء كان هذا الشعب بدائياً أو ظهرت لديه بعض معالم الحضارة، بل إن التقنية تبرز كشيء

<sup>66</sup> Kemp Peter, L'irremplaçable, édition C .E.R.F , Paris, (S.D), p 24.

<sup>67</sup>O. Spengler, L'homme et la technique, Idées, Gallimard, Paris, 1958, p122.

مشارك بين ما يقوم به الإنسان وما يقوم به الحيوان، لأن الحيوان بإمكانه أن يخلق لنا أشياء يعجز عن تقليدها أدق المهندسين، وهذا ناتج عن تطور مر به الحيوان منذ آلاف السنين، وقد لا يدخل على أكثر إنجازاته أي تغيير، خاصة إذا كانت تؤدي غرضها وهو المحافظة على النوع، بينما الإنسان يمكن أن يدخل على فعل التقنية نوع من التحسين والإبداع، ليصبح فعل التقنية مزود بمعرفة أو علم وبالتعبير اليوناني لوغوس، لتصبح الكلمة مركبة من شطرين: تقنية ولوغوس أو تكنولوجيا.

من هنا فإن التكنولوجيا ليست فقط وسيلة لتحقيق الفعل، الذي يصعب تحقيقه بأطراف الإنسان الطبيعية، بل هي ذكاء الطريقة في الأداء، أين يحقق بها الإنسان قدرته على العيش مع الأشياء، وكل إنتاج تكنولوجي يفتح مجال لولادة إنتاج تكنولوجي جديد، موسعاً من مجال تطبيق وسيطرة الإنتاج الأول، "أين أصبح لنا استعداد مسبق للإنتاج الأعمى لحاجات مختلفة، حتى ضاع المعنى وتشتت الرغبات، وأصبح الوجود مفككاً"<sup>68</sup>.

## 2- تبادل للأدوار بين الفلسفة والبيوايتيقا:

في الثامن من شهر ديسمبر عام 2001، جمعت اليونسكو أكثر من 20 شخصية من فلاسفة ومفكرين وكتاب وفنانين للنظر في مستقبل القيم، وأثيرت في هذا الملتقى مسألة "فقدان المعنى الأخلاقي بزوال القيم" أو ما يسمى بالفراغ الإيتيقي الذي تعيشه

<sup>68</sup> J. Testart, Les mort de genre humain, Revue de métaphysique et de morale N° 3, Paris, 1987, p 359.

الإنسانية بعد الثورة التكنولوجية التي شهدتها الكثير من مجالات الحياة، وكان الغرض من هذا الملتقى وضع نموذج فولتير (1694-1778) في الأخلاق، الذي كان يسيطر على عصر الأنوار تحت طاولة التمهيص، بما أن النموذج الأخلاقي المنشود يدعو إلى الوحدة كما هي وحدة الهندسة في العلوم، فقد اعتبرت الهندسة نموذج الصدق واليقين لباقي العلوم، التي كانت تريد تقليدها، كذلك بالنسبة للأفراد الذين يرغبون الكمال في سلوكه عليهم التأسى بنموذج الأخلاق الفاضلة.

### 3- تراجع الفكر الفلسفي لصالح البيوايثيقا:

كل حضارة لها أسلوبها ورؤيتها إلى العالم، لذلك يجب أن تكون للبيوايثيقا معياريتها الخاصة، ومصطلح المعيارية normative مصطلح معار من البيولوجيا، وهي خاصية تملكها المادة الحية تسعى من خلالها إلى تحقيق التكيف مع مختلف الأوساط التي تعيش فيها، فهي تسعى إلى تحقيق التأقلم مع عالمها المتغير، وكذلك حياة الناس وسلوكياتهم بما فيها الأخلاقية والعادية، فلا يمكن أن نتخذ لباسًا واحدًا في كل الفصول، كما لا يمكن أن نستعمل شريحة هاتف واحدة في كل البلدان، بل لكل بلد شريحته الخاصة، التي تمكننا من تحقيق التواصل مع الآخرين في ذلك المجتمع.

لذلك علينا أن نعكس تلك النظرة التقليدية للأخلاق ، بأنها تكون أخلاقًا مطلقة وصحيحة إذا جمعت أكبر قدر من الأفراد، أي تسعى إلى تحقيق الكوني بلغة "كانط"،

فالأخلاق أو بلغة أشمل "البيوايتيقا" تختلف بحسب الشخص والموقف والوضع والمجتمع الذي يكون فيه الفرد، لذلك على الأخلاق أن تقبل الاختلاف لا أن تسعى إلى محوه والقضاء عليه من خلال توحيد الأحكام، لذلك فإن اتصاف البيوايتيقا بالمعيارية، ضرورة لا بد منها لتجنب في عصرنا الحالي ما أدخلتنا إليه التطورات التكنولوجية أي عصر ما بعد الأخلاق الكلاسيكية أو ما بعد الحداثة أو ما بعد الإنسانية بلغة هابرماس وليوتار، وفلسفات الاختلاف وما بعد الاختلاف، إنه "عصر الخلاء" بلغة لبيوفتسكي G.Lipovetesky (1944-).

إن الاختلاف قانون الطبيعة، والأخلاق عليها أن تسير هذا المبدأ فننتقل إلى ما بعد الأخلاق، أي إلى البيوايتيقا بمختلف أبعادها وتفرعاتها، فلم تعد هناك قيم ثابتة، فكل القيم تتغير بحسب تغير السوق الواسعة، أين لا يمكن نعت حق ما أو واجب ما بالثبات، لأنها أصبحت مؤشرات خاضعة للأهواء والمخاوف، وحسب الظروف والشخص، فتتغير القيمة وحكمها بتغير الشخص.

ولو أردنا أن نتكلم بلغة الرياضيات، نقول بأن الأخلاق اليوم شبيهة بالأكسيوماتيك، كل مجتمع يخضع لأكسيوماتيك خاص به، وتكون الأخلاق ناجحة إذا احترم الفرد تلك المبادئ التي سلم بصحتها منذ البداية، وسيقع أكيد في التناقض إذا خرج عن نسق المبادئ التي اعتبرها كمنطلقات يحتكم إليها سلوكه منذ البداية.

## خلاصة:

نحن اليوم نتكلم عن ما بعد الإنسان أو الإنسانية المتجاوزة Transhumansme التي تحتاج إلى إبتيقا جديدة تتفاعل مع قضاياها، تكون إبتيقا متحوّلة، منفتحة عن الحالات الطارئة والشاذة، تتقبل الموقف والنقيض دون أن يكون لها ميل لأحد طرفي المعادلة، غير مرتبطة بمبدأ يكبل حرية تحركها في مساحة الإنسان، دون أن تفصل نفسها عن سلوكه ومظهره والمآلات التي ينتهي إليها، متجاوزة كذلك تلك الثنائيات التي طالما ربطت مع بعضها البعض، كالحق والواجب، والأسرة والإنجاب، المرض والعلاج...

## المحاضرة رقم إحدى عشر: البيوايتيقا ومصير الإنسان

### أهداف المحاضرة:

- 1- الاطلاع على علاقة الكشف العلمي بتغيير مفاهيم كلاسيكية.
- 2- تحديد معالم التفكير المابعد كلاسيكي ومساهمة البيوايتيقا في صياغته.

### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- الإنسان وإعادة الاعتبار للجسد.
- 3- الأزمة الصحية وإعادة الترتيب.
- 4- التقنية، وتسابق إنقاذ الجسد.
- 5- التقنية بين الاتهام في خلق المرض والأمل في جلب الشفاء.
- 6- الإنسانية الهشة.
- 7- خلاصة.

### تمهيد:

لقد تعرضت الإنسانية عبر تاريخها إلى الكثير من الأزمات، جعلتها تراجع الكثير من المبادئ والقيم التي كانت تؤمن بها، لكن تبقى درجة تأثير هذه الأزمات واللحظات الحاسمة في تاريخ البشرية راجع إلى مدى تأثيرها على الحياة العامة للإنسان، وهنا مقولة الإنسان قد تأخذ معنا عدة أبعاد، بحسب المرجعية التي نتكلم عنه من خلالها،

أين حصرت أبعاده في الخطاب الكلاسيكي ضمن القيم التي يريدها هذا الخطاب له، فكانت الابستيمولوجيا ومن ورائها كل المعارف بما فيها العلوم تخاطب الإنسان كعقل، والنظم الأخلاقية بمختلف مشاربها تخاطب الإنسان كضمير، والنظريات الوجودية والوجدانية تخاطب الإنسان كشعور، لذلك جاءت قيم هذه الأبحاث محصورة في ثلاثة أقطاب كبرى هي الحقيقة والخير والجمال، ومن هنا اطمأنت البشرية إلى مفهوم الكمال المنحصر في هذه القيم، التي تسوق التفكير نحو الحقيقة، والفعل نحو الخير، والنفس نحو تحقيق الطمأنينة وراحة البال بتمتعها بقيم الجمال، لكن هذه القيم كانت تعبر عن "أشواق الإنسان" إلى عالم مثالي كامل، تسمو فيه الروح وتترفع فيه عن كل الملذات المرتبطة بالجسد، فكيف تغيرت مفاهيم الإنسان بعد تطور علوم الطب والبيولوجيا؟ وما هي طبيعة الإنسان الذي تتكلم عنه البيوايتيقا اليوم؟

## 1- الإنسان وإعادة الاعتبار للجسد:

لقد نُظر إلى الجسد بنوع من الدونية مقارنة بالنفس وقيّمها منذ عصور، فقوبلت الحقيقة بظلال العالم المادي، والخير بملذات الجسد وشهواته، والجمال بقبح صورة المادة وبشاعة الجسد، حتى وإن بدا جميلاً.

لكن هذا التقسيم الثلاثي قد يثير الكثير من ردود الفعل المعارضة اليوم، خاصة في أبحاث مغايرة لفلسفات كلاسيكية كانت تمارس الإقصاء في حق الجسد، إن

الإنسان أعقد من أن تحصره هذه القيم فهو زيادة على أنه كائن مفكر وأخلاقي ومتذوق للجمال، هو كذلك كائن سياسي واقتصادي واجتماعي... هذا صحيح إلى حد ما، لكن الخطاب الكلاسيكي اقتصر في أغلبه على هذه القيم وشيد من خلالها صورته للإنسان، التي لم تظهر فيه صورته الأولى أو قيمته الأولى وهي قيمة الحياة.

## 2- الأزمة الصحية وإعادة الترتيب:

نتيجة الأزمة الصحية التي تأثر بها العالم مؤخرًا، والتي سببها فيروس كورونا، حيث تراجعت معه الكثير من القيم، والمبادئ، والنظم، وحتى الخطط الاقتصادية والتنمية، لصالح بعد واحد وهو البعد الصحي، الذي يحافظ به الإنسان على بعده البيولوجي، أين أصبح الطاقم الطبي مقدم على كل الطواقم وخدمته مرادفة لمفهوم "منقذ الحياة"، هذه الأزمة جعلت الإنسان يتساءل عن الأولوية التي يقدمها كنموذج للمعرفة: فإلى أي مدى نحن بحاجة إلى قضايا علمية متعلقة ببعدها البيولوجي، وهل يمكن اقتراح حلول معيارية تعيد ترتيب علاقاتنا بالطبيعة، وباقي الكائنات الحية، بما فيها المجهرية أو الفيروسية؟ وما هي حدود تجاربنا المخبرية على هذه الفيروسات، التي يمكن أن تتحول إلى وباء يفني البشرية؟ وما هي حدود قدرة العلم والتقنية على حماية حياتنا أم أن هذه اللآحدود هي من أثارت المسكوت عنه في الطبيعة؟ وما هو موقف البيوايثيقا من هذه القضايا؟

### 3- التقنية، وتسابق إنقاذ الجسد:

لقد غدا سؤال التقنية اليوم مصدر انهماك الكثير من الدارسين، ومن حقول شتى، لأنه لم يعد موضوعاً للاشتغال الفكري فقط، بل أصبح مشكلاً معاشاً، يمكن ملاحظة مظاهره في جميع مناحي الحياة، لأن جوهر التقنية كما حدده اليونان قائم على فعل الصنع اليومي، فقد كان هوميروس ينعت بها الحرفيين والعمال بشكل عام، وفي وقت لاحق أصبحت مرادفة للصانع le maitre، و *techné* كلمة تحيلنا كذلك إلى فعل "الإنتاج" أو "المواد المصنعة"، ثم عممت على كل فعل منتج حتى وإن لم يكن مادي، وهذا لأن الأمر مرتبط بالفعل المنفذ أو "الفعل الفعال"، الذي يترك أثراً عند قيامنا به <sup>69</sup>le faire efficace.

هذا الفعل دخل في تكوين الحياة اليومية للإنسان وغير الكثير من مظاهر الطبيعة، ولم يعد متوقعاً المدى الذي يمكن أن تصل إليه في مجال تغييرها، وقد أشار إلى هذه الخاصية جيلبيرت هوتوا G.Hottois بقوله: "ما فتئت التقنية تتطور وتتعدد دون برمجة مسبقة حتى أنه لا أحد يمكنه أن يحدد أبعادها غداً"<sup>70</sup>، فلم تعد هناك معالم يمكن الانتهاء إليها عندما ننطلق في فعل الانكشاف التقني.

ومما زاد وتيرة القلق نحو التقنية، هو ذلك التماثل الذي أدى بربطها بنموذج الكائن الحي، فتطور دراسة الكائن الحي كانت دائماً مرتبطة بتطور علوم الفيزياء والكيمياء،

<sup>69</sup>C. Castoriadis, Les carrefours du labyrinthe v1, édition du Seuil, Paris,1978, p223.

<sup>70</sup> G.Hottois, Evaluer la technique, éditon vrin, Paris, p 122.

وهذا لأن الفيزياء تحاول أن تفسر حركته انطلاقاً من عدة القوانين التي تملكها في تفسير حركة المادة الجامدة، واعتبار الكائن الحي جزء من هذا العالم الذي تنطبق عليه هذه القوانين، كما تعمل الكيمياء في المقابل على تبسيط التركيب العضوي للكائن الحي، باعتباره جملة من المحاليل التي تحقق مجموعة من التفاعلات، لتنتج لنا تراكيب أجهزة العضوية، وقد ساد هذا المفهوم بداية من القرن 18م، الذي ظهرت فيه الساعة والمحركات ذاتية الدفع، أين ربط مفهوم الكائن العضوي بالآلة -Animal-machine، وفي مطلع القرن 19م مع تطور التقنية مع لافوازييه Lavoisier في التكوين الكيميائي للهواء، أصبح الكائن الحي آلة بخارية Machine à vapeur، بما أن عملية التنفس هي التي تحدث معها عملية حرق الغذاء لتولد لنا غاز الكربون والحرارة المحركة للجسم<sup>71</sup>، وقد ساعد هذا التقدم العلماء والأطباء على فهم طبيعة عمل الأعضاء لدى الكائنات الحية، مما قدم الكثير من الخدمات للطب والبيولوجيا، خاصة من خلال تحديد سبب الأمراض والأوبئة، مما ساعد على إيجاد علاجات ملائمة للكثير من الحالات التي كانت تعتبر مستعصية عن العلاج.

#### 4- الإنسانية الهشة:

بعد اقتحام التقنية مجال الوراثة وفك بنية الجهاز العصبي الإنساني، والعمل على التحكم في نسله، أصبح بالإمكان إيجاد نموذج إنسان تقني في مقابل الإنسان

---

<sup>71</sup> Claude Lafon, La biologie et les controverses sur l'Homme, Ellipses édition, Paris, 2008, pp 18-18.

الطبيعي، فمن خلال التحكم في المنى والبويضة، إتجه العلم إلى تخليق كائن حي آلي أو بتعبير فرانسوا داغوني: "كائن آلة حية، وسط بين الإنسان والقرد، إنه الكائن المضاعف"<sup>72</sup>، هذا الكائن الذي أصبح نموذجه ومواصفاته حسب الطلب، أين بدا معه إنسان المحاورات السقراطية الذي يعرف ذاته بذاته، من خلال مبدأ "أعرف نفسك بنفسك"، إنساناً ساذجاً تنعكس آراؤه على نفسه بطريقة سطحية، بما أنه يجهل حتى الأمراض التي تصيبه إذا لم ينبئه بها الألم.

### خلاصة:

لقد أصبح الإنسان اليوم "إنساناً شفافاً"<sup>73</sup>، حسب تعبير أدورنو روبرتو R.Andorno (1961-)، وهذا نتيجة إحاطة العلوم الطبية اليوم بوظائفه البيولوجية، وشفراته الوراثية، أين يمكن الاطلاع على عمل أعضاءه الداخلية من خلال التصوير الإشعاعي، الذي تحول معه الجسد الإنساني إلى شيء زجاجي يمكن النفاذ إلى داخله دون المساس به.

---

<sup>72</sup> François Dagognet, La Maîtrise du vivant, Histoire et philosophie du science, edition Hachette, Paris, p148 .

<sup>73</sup> R.Andorno, La bioéthique et la dignité de la personne, edition P.U.F, Paris 1997, p 357.

## المحاضرة رقم إثنا عشر: البيوايتيقا ونماذج في الطب المعاصر

### الموت الرحيم

#### أهداف المحاضرة:

- 1- التعرف على بعض النماذج التطبيقية في حقول الطب والبيولوجيا.
- 2- وضع الطالب في وضعية مشكلة تمكنه من توظيف بعض الآليات التي اكتسبها في المقياس.

#### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- الموت من المجهول إلى المعلوم.
- 3- الموت، اللّحظة الفارقة.
- 4- الموت في الفلسفة الكلاسيكية.
- 5- الموت في الفلسفة المعاصرة.
- 6- خلاصة.

#### تمهيد:

لقد سعى الفلاسفة القدماء إلى تقليص خشية الإنسان من الموت، باعتباره وسيلة للخلاص من آلام هذا العالم، وقد بلورت اللّحظة السّقراطية هذا التوجه الفلسفي، التي انبثقت من رغبة الموت بما هي رغبة في الحكمة، وهذا ما أربك قضاته الذين

اندهشوا من تقبل سقراط لحكم الموت باعتباره مبتغى، وقد نقل عنه تلميذه أفلاطون هذا الشعور حينما قال: "لطالما اعتقد سقراط بأن التفلسف هو تعلم الموت"<sup>74</sup>، فلا وجود لحياة دون موت، ومن لا يحيا لا يعاني ولا يعرف المرض ولا الشيخوخة ولا غمرات الاحتضار، لأننا نولد ونحن نحمل موتنا، كما عبر عن ذلك جاك دريدا "الموت لا يفاجئ الحياة بل يؤسسها"<sup>75</sup>، وهو تصور ليس ببعيد عما كان يعتقد هيدغر باعتبار أن الإنسان كائن من أجل الموت، أما بعد تطور العلوم المعاصر خاصة في مجا الطب والبيولوجيا انتقل مفهوم الموت من التصور الميتافيزيقي إلى التصور العلمي، أين أصبح الفرد يمكنه تعريف الموت ومحدداته وربما تمكن الطب المعاصر من التفريق بين الأمراض أو الإصابات التي تؤدي إلى الموت والأمراض أو الإصابات التي يعيش صاحبها لمدة أطول، وأهم نموذج كشف عنه الطب المعاصر هو فن مرافقة المحتضرين، وأصبحت هناك مؤسسات خاصة تهتم بهذا المجال، وظهرت معها نماذج مختلفة ون الموت منها الموت الرحيم؟ فما هو موقف البيوايتيقا من الموت الرحيم؟ وما هي خلفياته ونتائجه على الإنسان؟

## 1- الموت من المجهول إلى المعلوم:

إن التأمل الشاعري المغرق في ميتافيزيقا الموت، لم يعد مجتمع اليوم يريد إحياءه، فهو يستبعد موته ويقذف بهم خارج أسواره، وينفر من محتضريه ليعزلهم في

<sup>74</sup> Platon, phédon, Galimard 1992, 68A.

<sup>75</sup> Jacques Derrida, l'écriture et la différence, Seuil 1967, p 337.

أماكن خاصة تحدد مصيرهم، ليتحول بذلك الموت إلى موضوع للعلم والطب، أين انتقل الموت من البيت إلى المستشفى، فلم يعد الموت شأنًا عائليًا بل تدخلت السلطة المعرفية في تحديده، ليصبح الموت مفهومًا طبيًا تحدده الآلات، فيجد المحتضر نفسه في غالب الأحيان معزولًا عن عالم الأحياء، تسيّجه الآلات، التي تضاعف عزله وتشعره بأنه منبوذ تخلى عنه أقربائه، وهذا يترجم عزل الأحياء عن الأموات، وهو فصل بين الحياة والموت، كما قال جون بودوان "يترجم فقدان التواصل بين الموت والحياة تهميش الموت والشخص المحتضر، الذي سيجد نفسه لاحقًا على حافة المجتمع معزولًا ومنبوذًا من الأحياء".

إن إشكالية الموت والحياة هي من صلب معنى الإنسان، وهو تساؤل الفلسفة المبدئي، حتى أن الفلسفة الحديثة في لحظة من أقوى لحظاتها قد أرجعت مع كانط كل أسئلتها إلى سؤال ما الإنسان؟

## 2- الموت، اللحظة الفارقة:

أثارت مشكلة الموت العديد من التساؤلات منذ بداية تأمل الإنسان لأحواله، وجدير بالذكر أن المسألة بدأت بالتشعب والتعقيد منذ القرن السادس قبل الميلاد، حين ظهر في اليونان الكهان الجوالون ومرّوجو أخبار العرّافين وتكهناتهم، وكانوا ينقلون أجوبة الآلهة وآراءها في شؤون حياتية كثيرة، ومن هنا نسجت الكثير من الأساطير حول الموت وقصص الموتى، لذا لعبت الأسطورة دورًا كبيرًا في بلورة الكثير من التصورات

اللاحقة عن الموت، حيث نجد ليفي ستراوس يلحظ باهتمام الوظيفة الإنسانية للأسطورة في الكثير من الأفكار، ومنها طبعًا فكرة الموت، سواء في العصور القديمة أو في العصر الحديث، وربما شكلت الأسطورة العلم الذي تتولد عنه حكمة الغد، وهذا الدرس يقدمه بالتحديد تحليل الأساطير، التي يحكمها منطق اللاشعور، فالأسطورة تضع العالم قبل الحياة، والحياة قبل الإنسان، واحترام الكائنات الأخرى، قبل محبة الذات، كما أنّها تتخطى المقولة الغربية، الصادرة عن التمرکز حول الذات، والآخرين هم الجحيم لتقرر بأن الجحيم يكمن فينا نحن، لذلك أهابت الفلسفة عبر العصور المختلفة، بلغة الأساطير ورموزها، ضربًا للأمثال، وإيضاحًا للأفكار والتصورات، فكان الفلاسفة أهم رواة الأسطورة، واستقت الفلسفة المبكرة قواها الروحية من أسس العوالم الأسطورية، وكان أفلاطون من أبرز الفلاسفة، الذين توسلوا برموز الأساطير.

لذا نجد أنه رغم التطور الكبير الذي شهدته الإنسانية في الكثير من المجالات، إلا أن هنالك وجها آخر لهذه الحضارة، الوجه الديني والأسطوري، الذي لا يمكن أن تطمسه أو تغيبه النزعات العقلانية والمادية، والتي تبقى ملازمة للوعي الإنساني، وبذلك يحتفظ إنسان اليوم، إنسان الحضارة العلمية والتطور التقني، بتلك اللغة المجازية الزاخرة بالحياة والرموز، إذ ليس بالإمكان التّكر لمعجم الإنسانية الأول، الذي كان يتصور الطبيعة والإنسان والخلق والموت ضمن أطر مختلفة، ترتبط بما

يلاحظه الإنسان من تغير في هذا الكون، ومن الأساطير اليونانية التي صورت فكرة الموت، أسطورة "أدونيس" الذي مات نتيجة هجمة حيوان أفعوان البحر، لتتوسل حبيبته "أفروديت" الآلهة وتقدم لهم القربان لكي يحيا لها حبيبها ولو ستة أشهر ويموت ستة شهر أخرى، وهكذا أصبح موته وانبعثه رمزاً لدورة الفصول في السنة... والكثير من الأساطير المماثلة التي يذكرها هوميروس في أعماله.

### 3- الموت في الفلسفة الكلاسيكية:

إن قضية الموت في الفلسفة الكلاسيكية، قد أخذت مساحة كبيرة في عمل الفلاسفة، ومن هؤلاء سقراط، الذي اعتبر بأن فكرة الموت فكرة إيجابية للإنسان، لأنها مجرد مرحلة يمر عليها الفرد لينتقل إلى مرحلة أخرى، فالإنسان مخلوق متناه وعابر، فالموت إما أن يكون نومًا بلا أحلام أو هجرة للروح لتنتقل إلى عالم آخر، ولذا فإن خشية الموت لا أساس لها في الحالتين، فإذا كان نوم لا تتخلله الأحلام سيغدو الموت راحة من عذاب الدنيا، وإذا كان هجرة ننتقل فيها إلى مكان آخر فأكد أنه سيكون مكان أفضل من الذي أتينا منه، أما أفلاطون فقد اعتبر الموت مآل كل النفوس، بل الموت هو حياة جديدة لها، لأنها تتعتق من الجسد وتحرر من أغلال سجن الجسد، لذا علينا أن لا نخافه ونستعد لمجيء هذا المحرر من خلال الإخلاص للعلم باعتباره طريقًا لخلاص النفس، فالجسد عائق لتحقيق المعرفة من خلال ما يغرينا به من رغبات وشهوات، أما أرسطو فهو يرى في الموت طريقًا نحو الخلود،

لأنه انتقل من خلاله إلى حياة العقل، الذي يعود به إلى العقل الفعال أو الله، وغاية النفس البشرية هي سعادة النفس العاقلة<sup>76</sup>، وأن هذه الحياة السعيدة لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق حياة عقلية نشطة تزينها الفضيلة، ويتم ذلك عن طريق التأمل النظري، الذي يقربنا إلى منبع الحكمة والفضيلة وهو العقل الأول.

#### 4-الموت في الفلسفة المعاصرة:

في الفلسفة المعاصرة تأخذنا الفلسفة الوجودية إلى معاني ذاتية للموت، حيث تربطه بالتجربة الشعورية الداخليّة التي لا يمكن لأي فرد أن يشاركك فيها، فهي لحظة تعيشها بمفردك، لأنها متعلقة بالوجود، ولكن ليس الموت ثمرة هذا الوجود ولا تبلغ الحياة تمامها بمجرد حدوثه، بل يمثل لها عائقاً يمنعها من بلوغ مرادها، فيعمل على تحطيم ذلك المشروع الأهم بالنسبة للوجود، ولعل الفيلسوف الألماني "مارتن هيدجر" M.Heidegger (1889-1976) عبّر عن هذه اللحظة بوصفها "أكثر لحظة يُسلب فيها الوجود الإنساني، لأنّ في هذه اللحظة يموت الإنسان طالما هو موجود، ولا يمكن أن يكتمل الوجود الإنساني إلاّ بالموت"، فالموت لا يكون إلاّ إذا كان هناك وجود، هذا الوجود الذي يُحقق بالفعل ليأتي الموت ويسلبه منه ليعوضه باللاوجود الذي يرافقه السكون والعدم، فمنذ اللحظة الأولى لوجود الإنسان يرافقه فيها هاجس الموت كونه كائن فاني ومتناهي، لأن الموت يبدأ مع الولادة وينتهي مع

---

<sup>76</sup>المرجع نفسه، ص 70.

انتهاء الحياة "فبمجرد أن يأتي الإنسان إلى الحياة يكون في الحال شيخًا مستوفياً الموت"، لكن الإنسان يهرب من الموت لأنه لا يمل الشجاعة لمواجهته، إذ ينتاب الشخص المقبل على الموت شعور الوحدة والقلق، وهذا القلق هو أعلى ما يكشف عليه السلوك الإنساني<sup>77</sup>.

أما جون بول سارتر فقد اعتبر بأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يدرك بأنه كائن مائت، وبقدر ما يتخذ الوجود الإنساني قراره لصالح توجهه نحو الموت فإنه يقق الحرية نحو حدث الموت، لأن الإنسان عندما يقتنع بهذه الحقيقة فهو يتجه بحريته نحوه، دون أن يرافقه أي شخص، لأن ذاتيته الفردية ستعيش تلك اللحظة بمفردها كما عاشت لحظة الولادة بمفردها، ولا يمكن أن نختار لحظة موتنا، لأن الحرية تنعدم مع الموت، لكن لا يجب أن يوقف قلق الموت مشروع الذات، ولا يجب اعتباره عقبة توقف مشروعاتي وإنما هو مجرد مصير ينبع في مجال آخر بالنسبة إلى هذه المشروعات، لأنني لست حرًا في أن أموت وإنما أنا فان حر<sup>78</sup>.

### خلاصة:

من هنا نتضح لنا تلك النظرة الشاعرية للموت التي طبعت صورته في العديد من الفلسفات، خاصة الكلاسيكية. لكن هذه النظرة تغيرت كثيرا في المجتمع المعاصر

---

<sup>77</sup> عبد الرحمان بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 1980، ص 99.  
<sup>78</sup> المرجع السابق، ص 281.

مع تطور الطب وتقنياته وبروز أشكال جديدة من العلاقات بين الأفراد وبين الحيح والمريض الذي أصبح الطبيب هو الرابط بين الصحة والمرض بين العضوية الحية والعضوية التي تأكد موتها.

## المحاضرة رقم ثلاثة عشر: البيوايتيقا وبعض قضايا الطب المعاصر

### الموت الرحيم نموذجًا -تابع-

#### أهداف المحاضرة:

- 1- التفريق بين الموت في صورته التقليدية والموت في صورته الحالية.
- 2- تكوين صورة تجمع اشتراك الحكم في الموت بين العائلة والطب والقانون والدين..

#### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- الموت وتطور الطب والبيولوجيا.
- 3- الموت، المصير المؤجل.
- 4- الأموات-الأحياء.
- 5- الأموات المؤجلون.
- 6- الموت المعجل أو الموت الرحيم.
- 7- الخوف من الموت.
- 8- من أجل إيتيقا للموت.
- 9- خلاصة.

## تمهيد:

عندما يتعلق الأمر بالتطورات التقنية، وخاصة في ميدان الطب والبيولوجيا، يتعاضم القلق والحرج حول إشكالية نهاية الحياة، بعد أن اخترقت التقنية كل المجالات لتصبح واسطة ضرورية تحدد علاقتنا بالحياة والموت، وقد عبر عن هذا هيدغر حينما قال "إننا نعيش وضعًا تقنيًا صرفًا"<sup>79</sup>.

لكن لم تأخذ التقنية صورة تطوير وتحسين ظروف العيش فقط، إنما ساهمت في تغذية فكرة السيطرة على الحياة وما يواجهها من عجز أو شيخوخة أو مرض بما في ذلك الموت، الذي لم يعد حدثًا فجائيًا يسلبنا الحياة في أي لحظة، بل أصبح الموت تقنية، أو فعل إنساني يقوم به أشخاص معينون -الأطباء غالبًا- ويتم في مؤسسة رسمية وهي المستشفى، وبذلك لم يعد الموت شأنًا عائليًا، بل غادر المنزل إلى المستشفيات والمؤسسات الخاصة لتخفيف الألم، حيث تزايد عدد الذين يموتون هناك لا سيما في الدول الغربية، ليصل إلى 85 بالمئة، بعد ازدياد عدد المرضى الميؤوس من شفائهم والذين تصعب مرافقتهم في المنزل، في مجتمع ينفر من شيوخه، ويرمي

---

<sup>79</sup> M.Heidegger, Réponses et question sur l'histoire et la politique, tr- française par J.Launy, Mercure de France , 1977, P 46 .

بهم إلى مأوي الشيوخ والعجزة، وتفكك العلاقات الإنسانية في عصر يمجد الفردانية وحب الذات وهو تفكك فرضه نمط الحياة الجديد.

## 1- الموت وتطور الطب والبيولوجيا:

إن مجتمع اليوم لا يريد النظر إلى الموت أو التفكير فيه، لأنه يستبعد موته خارج أسواره، وينفر من محتضريه ليعزلهم في أماكن خاصة، أين فقد الموت تلك الطقوس والشعائر التي لازمته لقرون، وقد وصف هذه الحالة الكاتب باتريك فارسبيرن P.Verspieren "لقد خسرت مجتمعاتنا مرافقة الموت مما جعلنا نخاف ونقلق من الأمراض الخطيرة مما جعل عديد المحتضرين ينطوون في وحدتهم"<sup>80</sup>.

في الماضي كان الفرد عندما يشعر باقتراب موته يسعى لأن يكون في محيط عائلي حيث يجتمع الأقارب والأصدقاء ليلبغهم رغباته وأمانيه التي لم تكتمل، إنها لحظات العفو والتسامح والوداع رغم ما يكتنفها من حزن وألم وفراق، إلا أن هذا التواجد العائلي يخفف عليه قتامة هذه اللحظات، لحظات الموت والاحتضار، لأن الإنسان كائن علائقي، وانتقاء علاقته بالآخر يضاعف ألمه، ويشعره بالوحدة والقهر.

أما اليوم فقد طرح المجتمع التقني مفاهيم ووضعيات جديدة للموت، حيث فصل بين الموت الإكلينيكي أو السريري وموت الخلايا أو الأعضاء، وهذا ما ضاعف

---

<sup>80</sup> P.Verspieren, Sur la pente de l'euthanasie, Revue Etudes, Paris, Volume360 N°1, Janvier 1984, p 43 .

ارتباب الإنسان تجاه الموت، وكيفية تحديده، فلم تعد لحظة الموت معروفة، واختلف حتى الأطباء في تحديدها، بين موت القلب وموت الأعضاء أو موت الدماغ، ويزداد الأمر تعقيدًا عندما يتعلق الأمر بأخذ أعضاء من ذلك الشخص قصد زرعها لدى شخص آخر.

## 2- الموت الرحيم:

لا تعمل التقنية فقط على تأخير الموت وإطالة حالة الاحتضار فقط، بل قد تعمل بطريقة عكسية، لتعجل الموت خاصة مع أولئك الذين لم نوفق في إخراجهم من حالة الاحتضار، كضحايا الحوادث الذين يفقدون وعيهم ويبقون في غيبوبة دائمة، تكبلهم الآلات وربما يموتون دون الرجوع إلى الوعي، وقد طرح تزايد مثل هذه الحالات عديد الاستفهامات ولا سيما المتصلة بإيقاف الآلات وتركهم يموتون لتيسير موت هادئ أو ما يسمى بالموت الرحيم.

يحيلنا الأصل الاشتقاقي لعبارة "الموت الرحيم" إلى الإغريق القدامى وهو يعني الموت الهادئ والمناسب كما يدل عليه أصله الاشتقاقي والمتكون من EU مناسب و Thanatos موت، فقد كانت الأمور في إسبرطة تتم بطريقة احتفالية، حيث يُقتاد العجزة والمرضى ليلقى بهم في النهر، بعد أن تملأ أفواههم بوحله المقدس، وفي جزيرة كوس Cos كذلك جزيرة أبقرط، أين كان يُدعى الشيوخ والمرضى والمشوهين

إلى وليمة كبيرة يتناولون في نهايتها كؤوس السم، وهو قرار قانوني أقره مجلس الشعب.

أما في التاريخ الحديث فقد بدأ استعمال المصطلح سنة 1605م، مع الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون F.Bacon (1561-1626)، الذي كان همه البحث عن علاج يخفف الآلام، عن طب قادر على تطيف قلق لحظات الاحتضار، ومرافقة المريض وهو ما يسمى اليوم "العلاج المخفف"، ويمثل هذا بالنسبة إلى بيكون الحلم القديم للإنسانية وهو الإفلات من قبضة قلق اللحظات الأخيرة للحياة واستقبال الموت بكل هدوء<sup>81</sup>.

أما في العصر الذي طغت فيه التقنية وتقدم الطب والبيولوجيا، فقد أصبح الموت الرحيم من أكثر المفاهيم إلتباسًا، كما قال جون قوفي Jean Yves Goffi "يخضع مفهوم الموت اليوم إلى الكثير من الاختلاف"<sup>82</sup>، كالموت الرحيم الإرادي واللاإرادي، والموت الرحيم الإيجابي والسلبي، الموت الرحيم التفضيلي (كما حدث في أزمة كورونا) ... هذا التعقيد ناتج عن تزايد عدد المرضى الذين أطالت التقنية مدة الاحتضار لديهم، بل أصبح هناك من يدعو إلى تشريعه، في أوضاع يعجز الطب عن العلاج ولا يمكنه منع الألم، وتصبح الأوجاع والإعاقة لا يُحتملان، عنها لا

<sup>81</sup> Patrik Verspieren, Euthanasia, Encyclopedia Universalis, Corpus4, France, S.A 2000, p 113.

<sup>82</sup> Alain Badiou, L'éthique, Essai sur la conscience du mal, Hatier, 1993, p 34 .

يمكن للحياة أن تتواصل، فمن أجل احترام الحياة وباسم الكرامة الإنسانية لا بد من قانون يضمن حق هؤلاء، حقهم في موت كريم وهادئ يجنبهم قسوة الألام ومرارتها، وفي هذا يقول جاك بوييه Jacques Pohier "يحتاج المرضى والشيخوخة والمحتضرين أكثر من كل الكائنات الإنسانية الأخرى إلى قانون يقر حقوقهم ويحميها، لا يحررهم من الألم بالموت فقط بل يساعدهم على العودة إلى المرفأ"<sup>83</sup>.

لكن رغم إظهار نوع من الرحمة مع هؤلاء في طلب موتهم، فهو لا يخفي تشريعه رهانا اقتصادياً وسياسياً، كما أن هذا فيه عنف وسلب لحق لم نمحه لذلك الشخص وهو حق الحياة، فنحن أمام أشخاص محطمين ومهمشين ومجرحين، لا يملكون سلطة القرار، فأبي إرادة لشيخ هرم مقعد أو طفل متعدد الإعاقات، أو مريض غائب عن الوعي أو مصاب بالزهايمر...إزاء هذه الحالات لا يمكن لفعل الموت إلا أن يكون إقصاء وعزلاً للعاجز والمريض والصغير وهو علامة ظلم وجور، لأن الطب وجد لإنقاذ الحياة من الموت لا التعجيل بها، وهذا ما يجعل الغرب يعيش أزمة إيتيقية في هذا المجال.

## 6 - من أجل إيتيقا للموت:

نحتاج اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى إيتيقا تضمن إنسانية الإنسان وتكبح أفعاله التي تخترق حدود الحرية الفردية، وتتجاوز كرامة الإنسان، بعيداً عن الاحتقار

<sup>83</sup> Jacques Pohier, La mort opportune, éd Du Seul, Paris, 1998 , p 318.

واللامساواة التي يعامل بها الكثير من المحتضرين، الخاضعين لصرامة التقنية الطبية، فالجانب التقني أصم لا يسمع أهات المريض ولا يحس بآلامه، وهذا ما يزيد من قسوة احتضاره دون عاطفة إنسانية، وهو ما يزيد من مرارة الحياة ويجعل المريض يتمنى الموت، فمن الصعب على المريض أن يموت مهملاً في ركن مستشفى وحيداً، بعد أن تخلى عنه الجميع فلا طبيب يسمعه ولا قريب يمسك بيده، فقد خسر المعنى في عالم يطغى عليه نقص الإنسانية والأخوة والتضامن والثقة.

إزاء هؤلاء المحتضرين، الذين يتهيؤون للموت دون كلمة حب أو وداع، ندعو إلى تأسيس إيتيقا الاهتمام بالموت، هذه اللحظة التي سيعيشها كل فرد منا، مغيبة في مخيال الأصحاء، لكنها ستحضر كأول فكرة عندما يصيبنا عارض، لا بد من مرافقة المحتضر وعدم تركه وحيداً يواجه آلامه أو موته، إيتيقا تؤكد مسؤوليتنا تجاه هؤلاء وهي مسؤوليات تؤكد إنسانيتنا وكرامتنا وتمنع أفعالنا من أن تنحرف عن طبيعتها الإنسانية لتجيز كل شيء بما فيها الموت.

### خلاصة:

وفي الأخير يمكن أن نقول بأن الموت لم يعد موضوعاً شاعرياً أو عاطفياً تتسج حوله التصورات الميتافيزيقية، لأنه ليس دخيلاً على الحياة، بل هو من صلبها، فمتى وجدت الحياة وجد الموت، فما ينقصنا اليوم هو الحكمة والمعنى، معنى المسؤوليات

ومعنى الحياة والموت، ينقصنا حب الآخر، وقبول مرضه وشيخوخته وموته، وكلها وجوه خرى للحياة، ولا ننساق وراء مجتمع السوق الذي مزّق الإنسان، وجزأه وسلبه موته وحياته، بدون الموت لا معنى لوجودنا الإنساني، وخارج التفكير فيه سنتسم أفعالنا وأحلامنا باللامبالاة.

## المحاضرة رقم أربعة عشر: البيوايتيقا ونموذج تكنولوجيا الإنجاب الاصطناعي

### -نموذج تطبيقي-

#### أهداف المحاضرة:

- 1- النزول بالمبدأ البيوايتيقي إلى الواقع.
- 2- تمكن طالب الفلسفة من حل مشكلة في الواقع انطلاقا من تكوينه النّظري.

#### عناصر المحاضرة:

- 1- تمهيد.
- 2- الأسرة بين البنية الاجتماعية والعلاقة البيولوجية.
- 3- الفئات المستهدفة من هذه التقنية.
- 4- الفلسفة والانجاب الاصطناعي.
- 5- الموقف الإسلامي من تقنية الانجاب الاصطناعي.
- 6- خلاصة.

## تمهيد:

إن تكنولوجيا الإخصاب المساعد التي استعملت كوسيلة للقضاء على قلق الكثير من الأزواج والأطباء في المجتمعات المعاصرة، مثلت فوزاً باهراً يضاف إلى جملة النجاحات التي أحرزها العلماء لصالح الإنسانية، غير أن تطبيقاته التي عمدت إلى تنفيذ بعض الحريات وتأمين الحقوق وتحقيق بعض الرغبات، جعلت الإخصاب المساعد ينحاز عن أهدافه العلاجية بغية تحقيق رغبات خاصة وفردية لا تمت بأي صلة بميدان الطب ولا بمجال المعالجة، ولعل الإخصاب أو الإنجاب بمساعدة طبية أصبح نموذجاً معاصراً للإنجاب، حيث أصبح بإمكان الأفراد المطالبة بطفل حسب الطلب دون مراعاة حقوق هذا الطفل، بما في ذلك الفصل بين العلاقة الجنسية والإنجاب، إذ مثلت وسائل منع الحمل جنس دون أطفال sex without baby، في حين مثلت وسائل الإخصاب الاصطناعي أطفال دون جنس baby without sex، وهذا جعل الطفل يمكن أن ينتمي وراثياً لأحد الزوجين دون الآخر، وهنا فصل آخر بين أبوة بيولوجية وأبوة اجتماعية، والأم الحاضنة والأم الظئر.

### 1- الأسرة بين البنية الاجتماعية والعلاقة البيولوجية:

إن الأسرة بالمجمل، هي عبارة عن مجموعة من الأفراد يعيشون في فترة معينة وتقوم بينهم أواصر القرابة أو نسبة محددة<sup>84</sup>، وهي بمعنى أخص مجموعة مكونة

---

<sup>84</sup> أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ج1، منشورات عويدات، بيروت، ص 413.

من الأب والأم والأولاد، كما أن الأسرة هي المؤسسة الصغيرة التي يقوم عليها المجتمع، وبقيت نفس العلاقة البيولوجية تربط بين أفرادها رغم تطور العلاقات والبنى الاجتماعية.

لكن التطورات الكبيرة التي حدثت في مجال الطب والبيولوجيا، خاصة ما يسمى بتقنية الإنجاب الاصطناعي جعلت الأسرة تأخذ شكلاً جديداً ومغايراً لما كانت عليه العلاقات القائمة بين أفرادها في المفهوم الكلاسيكي، لقد كان المفهوم القديم قائم على صورة واضحة المعالم، تقوم أساساً على طرفين هما الأب والأم، حيث يتولى كل من الأب والأم مسؤولية أولادهما المادية والمعنوية، وهي مسؤولية مشتركة مستمدة من فعل التناسل، وقد يكون كانط عبر عن ذلك بقوله: "إن فعل التناسل ينتج عنه واجب الحماية والاهتمام الموجه للأولاد"<sup>85</sup>، وأي تغييرات أو اهتزاز لهذا المفهوم يؤدي إلى اهتزاز المجتمع، لأن الأسرة وسيلة نشوء الأولاد بطريقة طبيعية، كما أن البنية الاجتماعية المتوازنة تقوم أساساً على البنية العائلية المتوازنة.

لكن دخول العائلة داخل تلك التحولات التقنية المختلفة، جعلها تعاني من فراغ نتيجة الفصل بين الحب والتناسل وهو فراغ إما على مستوى الأمومة، وإما على مستوى الأبوة أو الاثنين معاً، حتى أنها طرحت معها الإحراجات الأخلاقية والإيتيقية والنفسية والاجتماعية والقانونية، وكلها تتجه نحو تحديد جذور الطُّفْل، ونعني به نسبه، أو

---

<sup>85</sup> Kant, I, Métaphysique des moeurs, Doctrine du droit. 3 Edition J.Vrin , Paris, 1986, p 159.

بمعنى آخر تحديد أي الأمهات تكون الأم، وأي الآباء يكون الأب، فلاإن كانت الانثروبولوجيا تقوم على ضرورة تحديد القواعد الأساسية لانتماء الأفراد ضمن مجموعة اجتماعية معينة، تعتمد على قاعدة النسب، فلعلنا اليوم لم نعد نعرف على أي قاعدة يمكن تحديده، فهل يتم وفقا للعامل البيولوجي أم على خلاف ذلك وفقا للعامل الاجتماعي؟

### 3- الفئات المستهدفة من هذه التقنية:

إن تقنية الإنجاب خولت الإنجاب لصالح العزباء والعذراء والأرملة والعجوز والمتجانسة جنسياً، مما جعلت هذه التقنية تشمل الكثير من الفئات النسائية الذين لديهم القدرة على الإنجاب في حل من الرجل إلى جانب إخلالها بكل قواعد النسب التقليدية، على نحو ما أثاره باديني روبر R.Badinet في قوله: "إذا كان الرجل يحتاج إلى المرأة لكي ينجب طفلاً، فلعل المرأة اليوم لم تعد بحاجة إلى الرجل"<sup>86</sup>.  
لقد تغيرت الكثير من المفاهيم البيولوجية الاجتماعية داخل العائلة ومنها مفهوم الأم، الأب، الولد، النسب...

---

<sup>86</sup> Rebert Badinet, Les droits de l'homme face au progrès de la médecine, Probleme Politique et sociaux N669, 13 December 1991, p 44.

#### 4- الفلسفة والإنجاب الاصطناعي:

إن أول تساؤل أثارته تقنية الانجاب الاصطناعي هي قضية الكرامة الإنسانية، أين أصبحت هذه القضية في العالم الغربي مشكلة مثارة بشكل لافت في الملتقيات والندوات التي تتناول هذا الموضوع، ولم تفصل فيها دوائر العلم إلى اليوم، خاصة سنوات السبعينات ومنتصف الثمانينات، أين خرجت القضية إلى الشارع وطالب الكثير من المواطنين على كشف أسرارها ونظمت مظاهرات واحتجاجات في الكثير من الدول الأوروبية والأمريكية<sup>87</sup>.

هذا المشكل المثار بدأت فيه موجة من الشك والحييرة أمام هذه القيم الأخلاقية في صورتها الكلاسيكية حيث عجزت عن ضبط هذا المستجد مما جعل الأمر يحتاج إلى تفكير جدي وإبداع مفاهيم جديدة نستطيع من خلالها أن نجد مقاربة تجاوزية لهذه الوضعيات.

#### 5- الموقف الإسلامي من تقنية الإنجاب الاصطناعي:

أما الموقف الإسلامي فقد تراوح بين الرفض أو القبول بشروط، فمسألة الأم البديلة مثلا أجازها البعض في حالة حمل الزوجة لصالح الزوجة الثانية، (كما حدث مع الزوجة الكويتية)، ورفضها في حالة حمل امرأة أجنبية على الزوجين، فالمجمع

---

<sup>87</sup>ناهد البقصي، الهنسة الوراثية والأخلاق، مرجع سابق، ص 161.

الفقهي الاسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الثالث بعمان سنة 1986م، أصدر قرارًا يحرم فيه الاعتماد على طرف ثالث أو امرأة متطوعة.

إن تكنولوجيا الانجاب قد فتحت آفاقًا كبيرة أمام آمال الإنسان غير المحدودة، لكن تبقى معرفة الإنسان لأصوله وجذوره البيولوجية أمرًا ضروريًا، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، وقد لخصها روبن فوكس بقوله: "إن التركيبة الاجتماعية تعتمد أساسًا على العلاقة التي تربطنا بأجدادنا وبآبائنا، وهي الأساس الأصلي لكل الحقوق والواجبات والمشاعر والأفعال"<sup>88</sup>، فإذا جاء أمر يخالف هذه التركيبة الاجتماعية فإن جملة الحقوق والواجبات والمشاعر والأفعال المنظمة للأفراد وللبنى العائلية والاجتماعية مهددة بالانحلال والاهتزاز.

### خلاصة:

من هنا يمكن القول بأن انتشار التقنية الطبية دون سؤال المعنى المرتبط بها، جعل المجتمعات تسقط في منحدر زلق فيه الكثير من الأخطار، لأن المساس بالبنية العائلية والاجتماعية أمر يفتك بمصير الحضارات ويقطب نظام الأشياء، حتى أن النظام الأنثروبولوجي العائلي والأبوي يمكن أن ينقلب دون تبريرات واضحة، وعبر عن ذلك إيلي جورج قنبر بقوله: "إن إنجاز كهذا يمكنه أن يحدث تغييرات جذرية في

---

<sup>88</sup> Robin Foxe, Anthropologie de la parenté, Op-cit, p 14.

البنى الاجتماعية والفكرية، ومجال نفاذه تطل الحقول العلمية والدينية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية والحقوقية"<sup>89</sup>.

---

<sup>89</sup> إيلي جورج قنبر، طفل الأنبوب، إنجاز بشري في إطار مشاركة الله في خلقه، المصرة، العدد 671-672، المكتبة البوليسية، 1981، ص 643.

## قائمة بعض مراجع المقياس:

### 1- بالعربية:

- 1 - أحمد ديب شعبو، في نقد الفكر الأسطوري والرمزي، أساطير ورموز وفلكلور في الفكر الإنساني، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط 1، 2006.
- 2- أ فلاطون، محاورات أفلاطون ، زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1966، 63.
- 3 - جاك شوورن، الموت في الفكر الغربي، تر كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، الكويت، 1984.
- 4 - جمال محمد أحمد سليمان، مارتن هيدجر الوجود والموجود، دار التنوير، بيروت، 2009.
- 5 - عبد الرحمان بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 1980.

### 2- بالأجنبية

- 1- Platon, phédon, Galimard 1992 .
- 2 - Jacques Derrida, l'écriture et la différence, Seuil 1967.
- 3 - Jean-Louis Baudouin et Danielle Blandeau, Ethique de la mort et droit à la mort , P.U.F 1993.

4 - CL. Lévi-Strauss, Le metier d'ethnologue, Annales, 1961.

5 - M.Heidegger, Réponses et question sur l'histoire et la politique, tr- française par J.Launy, Mercure de France , 1977.

6 - P.Verspieren, Sur la pente de l'euthanasie, Revue Etudes, Paris, Volume360 N°1, Janvier 1984.

7 - Hans Jonas, Principe responsabilité, cerf 1990.

8 - Patrik Verspieren, Euthanasia, Encyclopedia Universalis, Corpus4, France, S.A 2000.